تجليات أدبية

كلبى الهرِم.. كلبى الحبيب

رواية

أسامة الدناصورى

ميريت

vodafone 4G 3G 0.00K/s
etisalat
79% 3:52

كلبيَ الهرمْ .. كلبيَ الحبيب

إهداء خاص للصديقة التي
ساعدت في توفير النسخة
الإلكترونية من الكتاب..

vodafone 4G 3G 0.00K/s
etisalat
79% 3:52

الولاعة الصفراء الجديدة

الخميس ٢٠٠٦/٤/٢٠
١.٣٠ صباحا

أخيراً وجدتُ ولاّعتى الزرقاء. (فى الحقيقة، لقد وجدتها فى الصباح، ولكن يبدو أننى مازلتُ مغرماً بالجمل الكبيرة، التى تقبض على المستمع أو القارئ، وتثبّته، لكى يكون كله آذاناً صاغية).

كانت فى (المجْ), مع الأقلام. الأقلام التى لا أكتب بها شيئاً، ولكنى حريصٌ على أن تكون دائماً هناك. وإن حدث وكتبت، إن حدث، فأى قلم، وعادة يكون من مكان آخر.

وضعتها فيه مرة عند ما قلت لنفسى سأقلع عن التدخين. كانت مليئة بالغاز، ولم أكن أحب أن أرميها فى الدرج الخاص بالولاعات الفارغة. يوجد الكثير منها.

إننى نادراً ما أرمى شيئاً. أحبُّ أن أصحو فأجدها (كنت سأقول: أصحو فلا أجدها عوضاً عن أن أرميها بنفسى).

هذا موضوع طويل، لست فارغاً له تماماً الآن.

نزلتُ اليوم.. لا.. نزلتُ أمس ، بولاعة جديدة، وعلبة بها أربع سجائر.

أنا فى الأيام الأخيرة أحاول ألا أتجاوز خمس سجائر فى اليوم. لكننى – مرات – قد أفاجأ أننى دخنتُ ١١ أو ١٢ سيجارة.

vodafone 4G 3G 0.00K/s 79% 3:52
etisalat

أنا أحب التدخين، كما أحببت أشياء كثيرة.
إنها حياة كاملة.

ما ذكرنى بالولاعة، أننى بحثتُ عن الذهبية النحيفة الجديدة، التى نزلتُ بها، وأمضيتُ بها سهرتى عند (حاتم), وجلستُ بها فى آخر الليل مع حمدى على مقهى فى شارع فيصل.

كنا مسطولينْ, عندما ركبنا عربتى البولو الخضراء، ناوياً توصيل حمدى أولاً، لأن عربته (المرسيدس) تشكو من بعض الأوجاع. ظللنا صامتينْ فترة طويلة، كان يستمع إلى إذاعة الأغانى. وكنتُ أقاوم إعصاراً من الكلام يدوّم بصدرى ورأسى, وأتردد. أنظر لحمدى، وأعود للصمت. كنت أوقن أننى إن لم أتكلم، سيموت الكلام داخلى ويتعفّن. ولن أستطيع كتابته، لأننى كنت أشك فى قدرتى على الكتابة ثانية. (أنا متوقف منذ ثلاث سنوات).

لم أكن أعلم أى شئ عن كنه هذا الكلام، وعن أى شئ يدور، فقط هناك كلام، وكلام غزير، ولابد أن يسمعه أحد.

عدتُ أنظر لحمدى: إنه صديقى. ولأننى أعلم أن هذا ليس كافياً، رحتُ أطمئن نفسى: إنه ذكىّ، حسن التقدير، يقظ الروح. وفجأة, امتدتْ يدى وأطفأت الراديو، وعدت للصمت ثانيةً. وهو لم يسأل، بل ظل صامتاً معى. (ألم أقل إنه ذكى؟).

ثم انكشف الغطاء، وخرج الكلام بصوت مبحوح، وحماس لم يرنى حمدى به من قبل. لدرجة أننى أشفقتُ عليه.

vodafone 4G 3G 0.00K/s 79% 3:52
etisalat

ولأن الطريق أوشك على الانتهاء, والكلام فى بدايته، اقترح حمدى أن نجلس على أحد المقاهى.

الولاعة الصفراء فى النهاية أخذها حمدى. رغم أنه يمتلك واحدة هى أختٌ لها. تكاد تكون توأمها.

كنت كلما أردت إشعال سيجارة, أبحث عنها، ويبحث هو، ثم يُخرجها، فأقول له: خذها, أنا لدىّ واحدة أخرى فى البيت، ولم يكن يردّ علىّ.

وفى مرة, أخرج ولاعتين صفراوين متماثلتين.

أنا متأكد أنه عندما يفرغ جيوبه فى البيت سيضحك.

.. وربما لا.

vodafone 4G 3G 0.00K/s 79% 3:52
etisalat

المسخ الصغير

٣ صباحا

الساعة الآن الثالثة صباحاً. بعد ساعة وربع بالضبط, ستصحو سهير. سيؤذن المؤذن أولاً.

(أتمنى ألا يكون ذلك الصبى الصغير، حفيد الحاج شكرى، صاحب العمارة المواجهة، وبالطبع صاحب المسجد الرابض أسفل العمارة. كان (غفراللّه له) هو كلّ شئ: حارس المسجد، ومقيم الشعائر، والمؤذن، والإمام والخطيب. إن لم يكن يتنطّع أمام أحد الدكاكين فى المنطقة, فهو فى المسجد بالتأكيد. لم يكن سامحه اللّه يحبنى (كده للّه فى للّه). وأنا بدورى لم أكن أطيقه. كان عندما يرانى ينظر لى (شَذَراً مَذَراً) ثم يولّى وجهه. ويبدو أنه نكاية فىّ أنا بالتحديد، وضع فى بلكونته المواجهة لبلكونتى, ميكروفونيْن هائلين متوجهين إلى شقتى.

أنا الآن أترحّم على أيامه, وأفتقده أيما افتقاد. إذْ بالرغم من أن صوته كان أجشّ, وكريهاً، وبالرغم من أنه كان مصدوراً ودائم السعال، إلاّ أن الأذان لم يكن يأخذ منه سوى ثوانٍ معدودات، يضيع نصفها فى السعال. والخطبة التى كان يقرأها من ورقة، لم تكن تدوم سوى دقائق، ثم يقيم الصلاة.

vodafone 4G 3G 0.00K/s 79% 3:52
etisalat

ذات مرّة، وفى منتصف إحدى الجمل أو الآيات، وهو على المنبر، والناس قعود بالأسفل, يتجرعون الخطبة كدواء مرّ منتهى الصلاحية، وأنا فى البيت, أمرّر الوقت بأى شئ، وإذا بصوته يعلو فجأة: (امشى يا إبن الكلب منّك لُه), ثم عاد وأكمل جملته وكأن شيئا لم يكن. خمّنت: أنه كان ولابد هناك بعض الأطفال يحومون حول باب المسجد وقتها.

بعدما مات الحاج شكرى توارثت الميكروفون حناجرُ شتى. كل من هبّ ودبّ يجرّب صوته فى أذان فرض من الفروض.

وتقلّبت على أذنى الأصوات: هناك الحادّ اللاسع. وهناك الغليظ البطئ. وهناك القوى الجبار الذى يزلزل البيت بى. لكنهم جميعا يسعون إلى التجويد والإطالة, قدر ما يستطيعون، كل حسب طريقته.

لكن (كلّه كوم وحفيدُه كوم)، ذلك المسخ الصغير، الذى يثقب أذنىّ بصوت كريه، هو مزيج من صوت العِرسة والصرصار.

(الطفل يؤذن, وأنا أخاف من صوته وأتشاءم)

إننى أحبّ الأطفال..

(لا.. ليس كل الأطفال..

... فقط الذين لا يؤذنون منهم).

ستصحو سهير، ولن تجدنى بجوارها، وستعلم لماذا نامتْ باستغراق هذه الليلة.

إننى أُشخّر فى الشهور الأخيرة شخيراً يوقظ النيام فى الشارع المجاور. وأتحرك طوال الليل.

vodafone 4G 3G 1.46K/s 79% 3:52
etisalat

ويدى اليمنى، التى تنام بجوارها (بل التى تسهر بجوارها كلعبة شريرة) دائمة الحركة كالبندوول. ودائمة الخبط فى المرتبة. المرتبة الفخمة، ذات السُستَت. والتى تضخم أخفت الأصوات، وتجعله يرنّ، ويرنّ، ويرنّ.

vodafone 4G 3G 0.00K/s
etisalat
79% 3:52

كنا نعذّب المحافظ

٣.٥٠ صباحاً

أسمع الآن الأذان- أذان الفجر نفسه- بدون أية ضغينة. المؤذن على غير العادة, صوته رائق وخفيض.

سهير استيقظت منذ دقائق. الساعة الآن الرابعة إلا عشرة. كنت مخطئاً وظننت أن الفجر فى الرابعة والربع. صحَتْ هى بساعتها الخاصة, قبل الأذان بدقيقة.

دخلتُ عليها الغرفة لأحضر الجيليه، وخرجتُ إلى البلكونة لأدخن. لم يكن الجو بارداً.. أنهيت السيجارة، ثم دخلت, وخلعتُ الجيليه.

لقد رمقتنى الآن وهى فى طريقها إلى الحمّام لتتوضأ. حيّتْنى بيدها من بعيد، ولوّحتُ لها. (كنت قد أخبرتها قبل أن تنام أننى قد أكتب شيئا).

أنا لم أكتب منذ ثلاث سنوات. تُرى هل صدّقتنى هذه المرة؟. لكننى لم أقل لها من قبل إننى سأكتب. فلماذا أكذب عليها الآن؟.

ستكون حياتنا أجمل فى الغد، والأيام القادمة.

هى لا تتوقع منى شيئاً على الإطلاق، ولا تتصور أنّى: (هاجيب الديب من ديله) ولا تعلم

vodafone 4G 3G 0.00K/s 79% 3:52
etisalat

حجمى كشاعر.

مالها هى ومالشعر؟ (إنه عملٌ البؤساء).

هى تذهب إلى المدرسة وتعمل بكل إخلاص. وكانت طوال الأسبوع الماضى تعمل فى البيت من أجل معرضها السنوى، وتأخذ رأيى فى مشغولاتها الفنية (طبعا جميلة). لم أكن أتكلم كثيراً. وكانت بذكائها تقدر.

لكننى أحياناً أكون مضطراً للادلاء برأى حاسم عندما تسألنى: هذا اللون أم ذاك؟ .. هذه الشراشيب، أم تلك الملاليم النحاسية فى الأطراف؟

وأنا بدورى لست غبياً. كنت دائماً أرجّح لها كفّة عن الأخرى بلا تردد.

سهير دائماً تثق فى رأيى ثقةً بلا حدود.

اشتغلنا معاً لفترة، كانت تصنع عقوداً من الأحجار الكريمة والفضة. كانت تفتنّ الجميع. وكان علاء خالد ومازال يعرضها فى الجاليرى. ويأتى كل فترة بورقة الحساب المفنّدة وقبضةٍ لا بأس بها من النقود، ويقول: اصنعى عقوداً أكثر.

فيما مضى, قبل فكرة العقود والحلقان، كانت تصنع حقائبَ جلدية. ذهبنا سوياً مرات عديدة إلى (تحت الربع) لإحضار الجلود.

كنا نحضر الحيوان كاملاً (جلداً فقط ومدبوغاً بالطبع).

توجد عندنا بقرة نصف مدبوغة, تنام على الباركيه فى الصالة.

vodafone 4G 3G 0.00K/s 79% 3:52
etisalat

بقرة كاملة، بشعرها الكستنائىّ، وأطرافها المجثوثة.

كان الجلد منه (الحُور): "جلد الماعز"، لصنع المحافظ وأكياس النقود. (والكُوارى): "جلد الأبقار"، لصنع الحقائب الكبيرة, وأخيراً "جلد الجمل": لصنع الأحزمة.

صنعْنا من جلد الماعز محافظ جيب للأصدقاء، لم نبع منها شيئاً. أذكر أنها كانت تضع التصميم، وتقص الجلد، وتأخذ فى تخريم الأطراف بالخرّامة (أحيانا كنت أقوم بذلك)، ثم تأتى بقطعة مهملة من الجلد شبه دائرية، وتقصها على هيئة خيط جلدى نحيل متصل، ليستخدم فى خياطة الأطراف.

لكننى كنت أنتظر الخطوة الأخيرة بشغف. بعد أن تكتمل المحفظة تماماً، وأراها حائرة: ماذا سنرسم على ظهرها؟

لم تكن تستخدم الفرشاة بالطبع، بل ذلك القلم الكهربائى ذا السنّ المعدنى الملتهب. الذى يترك على الجلد آثاراً بنية غائرة.

(كنا نعذّب المحافظ)

أقول لها بفرح: اتركى لى هذه الخطوة التافهة. وأروح أُجرى القلم على الجلد, لتخرج رسوم سريعة شبه كاريكاتورية، أعجبتْ أصدقائى كثيراً: حكم، إيمان، يمانى... وأنا بالطبع.

لكننى رميتها بعد يومين، واشتريت محفظة جلدية صالحة للفلوس والبطاقات والأوراق الصغيرة المهمة.

vodafone 4G 3G 10.5K/s 79% 3:53
etisalat

(الغريب أنى فوجئت بأن كلا من حكم، ومحمد مرسال، مازال يحتفظ بمحفظته بعد أن انقضى أكثر من عشر سنوات. بل أخرجها لى كلّ منهما من جيبه الخلفى وقد تحولت إلى أثر، بلونها البنى المحروق، وقد انطمستْ رسومى الغالية، أو كادت.)

من سيأخذ عزائى؟

٥ صباحاً

صحوتُ الآن من النوم – لم أنم أصلا – وعدتُ ثانية لغرفتى.

كنت قد قسْت الضغط قبل أن أذهب. كان(١٥٠\١٠٠). لم يكن فى الواقع مرتفعاً جداً. لكنه بالنسبة لى الآن يعتبر (فى السما).

إن ضغطى فى الشهور الأخيرة غالباً ما يكون (١٠٠\٧٠). وهذا ما يرعبنى, خوفاً من توقف العملية فى ذراعى. والدخول فى الدوّامة السوداء إياها.

وأنا جالسٌ مكانى على الكنبة، أستطيع أن أمدّ بصرى فى خطّ مستقيم, فيعبر أولاً باب غرفتى، ثم عرض الصالة، ثم فراغاً فى الحائط بحجم باب يصب فى الطرقة، ثم أخيراً حائط الحمام المواجه, حيث مفتاح النور. باب الحمام فى المواجهة, بجوار الحائط، باب المطبخ على اليمين، وعلى اليسار باب غرفة النوم.

قمتُ من مكانى قاصداً السرير. أطفأتُ النور ودلفْتُ إلى الصالة. الشقة تغرق فى عتمة كاملة. خطوتُ خطوةً بطيئة، وخطوة أبطأ، ثم أخذتْ رأسى تدور وتدور. كنت على وشك السقوط على وجهى، قلت: انتبه، ستموت، وجلست مكانى مفترشاً الأرض.

كنت فيما مضى أنطرح على ظهرى دائخاً ومنتشيا, عقب سيجارة حشيش, وضغط منخفض. أما الآن, فأنا أشعر برهبة حقيقية. لا لن أموت الآن. سأقاوم الموت بكل ما أستطيع.

بعد قليل زحفتُ على الأرض, حتى وصلتُ إلى الحائط المقابل، استندت عليه, ووقفت، وأضأت نور الطرقة، ثم أطفأته سريعاً, بعد أن حددتُ طريقى إلى السرير. خطوتان, وكنت ممدداً على ظهرى فى مكانى المعتاد بجوار سهير.

هاجمنى الإحساس بقدوم الموت مرة أخرى. ذلك الهاجس القوى الذى احتلّنى منذ أول الليل، وحاولتُ الفكاك منه طوال الوقت، ويبدو أننى لم أستطعْ.

برقتْ فى ذهنى القائمة التى أعددتها منذ قليل, وبها الأسماء المرشّحة لأخذ عزائى.

حاولت تحريك يدىّ، ثم ساقىّ، لم أستطع. كانت هناك تنميلةٌ باردة تزحف فى الأطراف متجهةً إلى الداخل.

قلت: أهكذا يكون؟ ثم رأيت نادية (رفيقتى فى الغسيل, والتى تنام دائماً فى السرير المجاور). كانت تسبح فى سماء الغرفة, بوجه شاحب, وابتسامة صافية، وتشير إلىّ أن أتبعها، فيما هى تتجه نحو الباب.

قلت: إذن ماتت نادية.

وفجأة تذكرت أننى لم أكتب اسم سهير مع باقى الأسماء فى القائمة، (يا خبر)، كان يجب أن يكون اسمُها قبل الجميع.

(اذهبى أنتِ يا نادية الآن).

– سهير.. سهير.. سهير

تململتْ قليلاً ثم زامتْ وهى تدير رأسها.

– معلهش يا سهير صحّيتك، بس ممكن والنبى تروحى تجيبيلى الأجندة الخضرا من الأوضة الثانية؟

– ..... وهاتولّع النور؟

(صدمنى السؤال).

– لا ياماما ماتشغليش بالك. نامى انتِى. تصبحى على خير.

وها أنا (زىّ الجنّ) أكتبُ فى نفس مكانى المعتاد, على الكنبة. الكنبة التى قضيتُ عليها عمرى كله..

هى وكنبات أخرى .

خضراء ووحيدة

٥.٣٠ صباحاً

انتهى سنّ القلم الرصاص(٠.٧). بحثت كثيراً ولم أجد علبة السنون. لكنى وجدت واحداً خشبياً من أقلام سهير. سنّه غليظ, وخطّه باهت, ولا يطاوعنى كثيراً.

ثم ها هو صباح جديد.

الساعة ١\٥م صباحاً. سهير لازالت نائمة. ستصحو فى السابعة. تصلّى أيضاً، قبل أن تستعد للذهاب إلى المدرسة.

كان من المفترض أن أذهب اليوم إلى الميكانيكى لإصلاح العربيّة. رأيتها منذ قليل وأنا فى البلكونة (تقف فى الخرابة المجاورة)، خضراء كما هى، ووحيدة. قبل أن أصعد, أخذتُ معى الكاسيت, نكايةً فى اللص. أنا أكثر من فى الشارع تعرضاً لكسر زجاج السيارة الخلفى (الهوّاية) وسرقة الكاسيت.

قبل أن أفطن وأشترى الكاسيت المحمول. وحتى بعدها، تكاسلتُ ذات ليلة ودسسته فى التابلوه، مع ملفات التأمين الصحى وبعض الأوراق، ونسخة من أحد دواوينى.

سُرق أيضا، وسُرقت معه نظارة شمسية كنت أخفيها فى فتحة أسفل الدركسيون.

حزنتُ عليها وأنا أضحك. لأننى كنت قد اشتريتها بعشرة جنيهات, من عيّلٍ واقفٍ فى الشارع حتى أن سهير يومها ضحكت وقالت :(دى بخمسة بس)

هاناكل إيه بكرة؟

٨ صباحاً

وجدتُ قلماً آخر (٠.٧) فى درج الكوميدينو الملاصق للسرير. أخبرتنى سهير بذلك.

كنتُ قد تسللتُ إلى جوارها فى السادسة. لم أستطع مقاومة النعاس. وجدتها صاحية. أغمضتُ عينىّ وأنا أعلم أننى لن أستطيع النوم سوى بعد مغادرتها. (عندما تصحو سهير مبكراً هكذا فلكى تجهز الغداء، بحيث لا يتبقى أمامها بعد عودتها سوى إكمال إنضاجه، بينما يتم تسوية الأرز).

أغلقتْ علىّ باب الغرفة, حتى لا تهاجمنى أبخرة الطبيخ, وقرقعة المواعين.

بعد قليل فوجئتْ بى أقفُ أمامها فى المطبخ.

– قلت أفطر معاكى وافضلْ صاحى لغاية ما تنزلى.

– دخنت كتير؟

– ١٢ أو ١١ سيجارة (كانوا ١٣)

لم تعقّب، أو عقّبت، لا أذكر.

قالت:

– التلاجة فضيت. مافيهاش أى حاجة.

– ولا عيش (كنت قد أكلت نصف الرغيف المتبقى, بآخر قطعة جبن موجودة)

– لا.. فيه عيش بلدى فى الفريزر.

– بلدى؟

– بلدى بتاع اسكندرية اللى إنت بتحبه. ماما كانت جايباه معاها. (زارتنى أمى فى الأسبوع الماضى لتطمئن علىّ. كان من المفترض أن نذهب إليها سوياً فى عيد الأم كالعادة. لكننى كنت مريضاً).

"عندما أقول مريضاً, يعنى أن هناك شيئاً غير معتاد، مثل الانفلونزا، أو احتقان الجيوب الأنفية، أو ألم الأسنان، أو أى شئ من الأشياء المباغتة التى تأتى وتروح!

ساعتها أعلنُ بجلبة كبيرة, أنى مريض.

الفشل الكلوى ليس مرضاً. إنه أنا. أنا العادىّ جداً. فقط, عندما أكون فى بيتى، تكون كليتاى فى مكان آخر. مرة فى الزمالك: بشارع شجرة الدر. ومرّات هنا فى الجوار: فى الجيزة, أو الهرم, أو حتى فيصل نفسه".

المهم, كان عندنا خبزٌ جميلٌ فى الفريزر (لو كانت آتيةً من البلد, لأتت بالقراقيش والرقاق). ولأنها لا يمكن أن تدخل علىّ (بإيدها فاضية), يبدو أنها أفرغت ثلاجتها وأتتْ بما فيها:

فرخة بلدى، وأرنبين، وبطة، وكيس ممتلئ بالعيش.

ولم تنس أن تحضر ستّ سمكات بلطى متبلات ومجمدات.

(مازالت عندنا بطة فى الفريزر ، وبعض الأرغفة)

سلقتْ بيضتين وصنعتْ إفطارا من العدم. سألتنى بريبة :

– هاتشرب شاى؟

هى تعلم أننى لو شربت شاياً فى المساء, لا أستطيع النوم. مابالك ونحن فى الصباح، وأنا لم أنمْ للآن، وأحتاج للنوم بشدة، وهى ترى أنى شربت شايا مرتين بالليل (الأكواب بجوار الحوض).

لم أجبْ. وهى لم تجادلنى. وضعت ماءاً يكفى ثلاثة أكواب, وجلسنا نفطر سوياً: عيش، وبيض مسلوق، وزعتر بزيت الزيتون (من أين أتت به؟) وعسل وطحينة، كنت قد خلطتُه منذ أيام ونسيته، لكنها تعرف مكانه.

– التلاجة لازم تتملى النهاردة. أنا طول الأسبوع اللى فات مشغولة فى المعرض وما خدتش بالى (قالت كمن تعتذر)

– النهاردة بإذن اللّه نتغدّى وننزل سوا نجيب كل اللى ناقص.

– طب هاناكل إيه النهاردة؟... أطلّع البطّة؟

– يبقى النهاردة بطّ ، وبكرة لحمة ضانى عند الجماعة؟... كتير (أنا المفروض لا أُكثرُ من أكل اللحوم. لكننى أكثرُ فى الحقيقة. أنا من أكلة اللحوم بطبعى. أما هى فتحب الأسماك.. الأسماك شبه ممنوعة أيضاً, بسبب الفسفور. لكننى آكل الأسماك. لا أقول لأجل سهير، بل لأجلنا معاً. هى تحاول أن تطيل المسافة بين كل وجبتىْ سمك. لكننى أفاجئها أحياناً عندما تسأل:

– هاناكل إيه بكره؟ فأجيبها بلا تردد: سمك).

كانت قد بشَرتْ ثلاث بصلات, وأخرجتْ ورق العنب من الفريزر. فتذكرتُ أنها كانت قد اقترحتْ بالأمس: (محشى ورق عنب).

– يعنى بلاش أطلّع البطة؟

– أنا باقول نقضيها النهاردة من غير لحوم، عشان بكره هاناكل لحمة فى إمبابة.

– يعنى محشى بس؟

– .....

كنت على وشك أن أقول لها: ياريت تجيبى معاكى من السوبرماركت كيس (كفتة المراعى)، أو كيس (كوكى دبابيس) جنب المحشى.

(لكننى لذتُ بالصمت وخرجتُ شامخاً من الحوار).

أمى تحبنى

١٠ صباحا

كلما زرتُ أمى فى الإسكندرية، أو فى العزبة، لم تنسَ مرة أن تسألنى عن شيئين, الأول:

– إنت مش هاتريّحنى بقى يا أسامة وأشوفك بتصلى؟

يابنى أبوك محتاج حدّ يدعيله فْ تربته. وانا لمّا اموت.. مين هايدعيلى ياأسامة؟، وتذكّرنى بالحديث:

(..... ولدٌ صالحٌ يدعو له) وتتركنى وتذهب.

أبى كان قد شالَ يده من الموضوع, قبل موته بعدة سنوات، رغم أنه هو الشيخ الأزهرىّ، الإمام والخطيب، ومدرس الدين. أيضاً كفّ كل من حولى: أخى، عمى عبد الستار، ومن قبلهما جدى.

(إلا أمىّ)

– يابنى هو انتَ عاوز تتعذب دنيا وآخرة؟

انتَ اتعذبت كتير فى حياتك يا حبيبى، عاوز تدخل النار؟ طب وعذاب القبر يا بنى؟

– أنا باصلّى ياماما... بس مش بانتظام، وربنا عالم. هو قريّب منى ومطّلع على كل حاجة.

– قوللى يا أسامة .. إنتَ مؤمن بربنا وبالإسلام؟

ومؤمن إن فيه جنة ونار؟ .. إنت إيه يابنى قوللّى؟

– إيه يامّة اللى بتقوليه ده؟ يا خبر، طبعاً مؤمن، ومؤمن جداً كمان. (لم تصدقنى يوماً)

فاجأتُها يوم جمعة فى إحدى زياراتى للعزبة. قمت، وتوضأتُ أمامها بدون أية كلمة، وقلت لعلاء أخى:

– يالله بينا.. إنت مش هاتصلّى الجمعة والا إيه؟

(علاء وقتها كان هو الذى يخطب بالناس ويؤمّهم)

ذهبتُ، وصليت، وسلمت على الناس، وأحسستُ ببهجة قديمة. قرأتُ الفاتحة، والتشهد أيضا (لم أكن أذكره جيدا), ورفعتُ إصبعى السبابة عدة مرات وأنا جالس لقراءة التشهد, كما كنا نفعل قديماً.

عندما عدتُ من الجامع ، كانت سعيدة (لكنها لم تصدقنى).

فى آذان العصر ذهب علاء، وبقيْت.

لم تنظر لى حتى... وسافرْت.

عندما زارتنى هذه المرة تكلّمَتْ أولا عن الأمر الثانى:

– إنت مش هاتبطّل السجاير بقى يا أسامة؟..إنت مش وعدتنى كذا مرة؟

– أنا كنت مبطّل واللهى، ولسه راجع من يومين، باشرب تلات اربع سجاير فى اليوم. يعنى مبطّل ياماما.

– طيب.

كنتُ جالساً على الكنبة كالعادة، سانداً ظهرى إلى المخدات، وفى يدى جريدة أو كتاب، وهى جالسة على نفس الكنبة فى مواجهتى.

(الكنبة على شكل حرف L)

فجأة.. انكبّتْ أمى على قدمى وقبّلتها.

(أمى قبّلت قدمى)

أصابنى الهلع.

– يابنى ياحبيبى, مش هاتصلّى بقى وتطمنّى عليك قبل ما اموت.

قصدها طبعا (قبل ماتموت).

هى خائفة حدّ الرعب من موتى قبلها، هى تتوقعه وتستعدّ له، لكنها لا تريدنى أن أذهب إلى الجحيم.

قمتُ مسرعاً. لكننى عدتُ فوراً للجلوس. كنتُ مريضاً، أعانى من الأنيميا، ولا أستطيع الحركة بدون دوخة وضربات قلب سريعة، أسمعها تدوّى فى رأسى، وتخرج من أذنىّ كدقات الطبول.

لكننى قمت أخيراً، وذهبت، وتوضأت، وجئت، وفرشتُ السجادة أمامها بالضبط، ووقفتُ أصلى. كانت تنظر لى بعيون غائمة, وأنا لا أقدر على الانحناء للركوع، ولا الجلوس على قدمىّ بين السجدتين. كنتُ سعيداً لأنها كانت راضية. الآن كنت أراها راضية (أكملتُ صلاتى جالساً تماماً).

أمى ليست قاسية...

أمى تحبنى.

لم أذهب للميكانيكى

١٢.٤٥ ظهرا

أذّنَ الظهر منذ قليل. الساعة الآن الواحدة إلا الربع. لم أنم مازلت. حاولت، لكننى فشلت. الإرهاق هو السبب. حدث هذا عدة مرات فى الفترة الأخيرة. كنت أسهر طوال الليل، إما لأرق طارئ، أو رغبة فى إقناع نفسى أنى أفعل ذلك لأجل سهير، فأكمل حتى الصباح، ببطولة مضحكة. وعندما تصحو تجدنى أحاول النوم بجوارها قائلا:

– خُفْت عليكى من الشخير، فسبتك تنامى براحتك.

(كانت تبدى امتنانا صامتا ولا ترد).

تذهب سهير إلى الشغل وتأتى، وأنا بعد لم أنم. اليوم سيحدث نفس الأمر. وستُضرب كل مواعيدنا واتفاقاتنا الخاصة، واحداً واحداً.

١- لم أذهب للميكانيكى

٢- لم يعد معقولاً أن ننزل الآن لكى نتسوق ونملأ الثلاجة (يجب أن أنام)

٣- وطبعاً فكرة النزول معا للسّهر ليلة الخميس، انتهت منذ فترة إلى الموت، بعد أن تقلّصت على مدى الشهور الأخيرة.

(كان هذا يوم فسحتها معى. غالباً ماكنا نذهب إلى السينما)

(قالت لى يوما: أنت لا تصنع شيئا من أجلى أبداً،

حتى إذا خرجنا سويا لانذهب سوى إلى السينما, أو كارفور)

ماذا كانت تريد منى بالضبط؟ .. لم أعرف أبداً.

تفاقمت حالتى الصحية سوءاً فى الشهور الأخيرة. لم تعد تُلمح إلى مثل هذه المواضيع.

وأنا استرحتُ تماماً.

عرق

٢ ظهرا

نمتُ نصف ساعة، من الواحدة والنصف, وحتى الثانية. ثم صحوتُ كالعادة فى أيام الصيف, لأبدل ملابسى. لا أستطيع النوم بشكل متصل أكثر من نصف ساعة. أصحو من أعمق الآبار, شاعراً ببرودة حقيقية، لأجد ملابسى كلها مشبعة بالعرق، أخلعها, وأرتدى طاقما جافاً من الدولاب، ثم أعود للنوم، بعد أن أنشر القطع المبتلة حتى تجف. (يوجد كرسيان فوتيه فى الغرفة صالحان لهذا الغرض)

بعد أن يتراكم أربعة أو خمسة غيارات، يكون الطاقم الأول قد جفّ، فأبدّل بينها حتى الصباح.

«ملابس شتوية»

الجمعة ٥/٥/٢٠٠٦

اصباحا

سأبدأ من الغد فى البحث عن عصاً مناسبة لتساعدنى على السير. (الأنكل) الذى ألبسه فى قدمى اليسرى, لم يعد كافياً لدرْء الألم الذى أشعر به عندما تطأ الأرض. أيضاً.. وهذا هو المفاجئ فعلاً - لا.. ليس مفاجئاً بالضبط، بل ليس مفاجئاً بالمرة، كنتُ أتوقعه، ولكن كعادتى كنت أتحاشاه - لقد بدأ الألم يسرى فى ساقى اليمنى، ليسكن فى ركبتى.

أنا الآن فى عز الصيف، أرتدى بنطلوناً قطنياً كنت ألبسه فى الشتاء الماضى. تكبّدت العناء حتى أحضرتُه من أعلى الدولاب, حيث الملابس الشتوية المخزّنة. وأرتدى أيضا جورباً، وسويت شيرت ثقيل.

باختصار.. لقد أنزلت كل ملابسى الشتوية.

فى مثل هذا الوقت من الصيف الماضى كنت أجلس فى البيت, ببنطلون صيفىّ خفيف، وفانلة داخلية فقط، وأنام هكذا, بلا أى غطاء. لم أكن أطيق أية أغطية مهما خفّت على جسمى.

الآن، أنام بعد ارتداء الجيليه، وتحت غطاء سميك يشبه اللحاف.

إنها هشاشة العظام. تلك الزائرة السمجة، التى تهبط على الشيوخ فى أرازل العمر، ولا تفارقهم حتى تدخل معهم القبر.

(تذكّرنى بالحمّى، زائرة المتنبّى، الذى بذل لها المطارف والحشايا، فعافتها، وباتت فى عظامه.

سوى أن الأخيرة ذات حياء. إذ تأتى وتروحُ سريعاً، وإن كانت أحياناً تروحُ هى والمضيفُ معاً)

غير أنى لستُ شيخاً. أنا لم أتخطّى السادسة والأربعين بعد.

هل أقول إنها أخطأتْ فى تقدير سنّى؟

لا لم تخطئ. ويعلم أطباء الكلى، ومرضى الفشل الكلوى القدامى ذلك جيداً.

المرضى القدامى؟

لماذا لم أعد أرَ منذ سنوات مريضاً يغسل دمه أقدم منى؟

وهل ١٢ سنة, هو العمر الافتراضىّ لمريضٍ يغسل؟

وهل ياترى أصابتهم الهشاشة جميعاً قبل موتهم؟

أم أن حظهم البائس, لم يسعدهم ليجرّبوها مثلى؟

وحدة الزمالك

الجمعة ٥/٥

١٠.٤٠ مساء

ذهبتُ إلى الوحدة فى الثامنة والثلث صباحاً.

الجمعة, هو اليوم الوحيد الذى أغسلُ فيه فى الشفت الأول (٨-١٢), اليومان الآخران (الاثنين والأربعاء), أكون فى الشفت الثانى (١٢-٤). الوحدة مزدحمة، بها عشر ماكينات، وحوالى ستون مريضاً.

اخترتُ الوحدة الحالية (الشباب٢) فى أعقاب تركى لوحدة الزمالك، وذلك قبيل إغلاقها بفترة وجيزة.

كانت الإرهاصات قد بدأت تزكمُ أنوفنا. جاءت مشرفةٌ من هيئة التأمين الصحى، وذهبتْ، لكنها تركتْ خلفها دوامات من الهمس والريبة.

نحن نتردد على التأمين باستمرار (الخدمات الطبية), لتجديد أمر الغسيل كل ثلاثة شهور، ولمقابلة استشارى الكلى كل شهرين, لصرف العلاج, وتمديد الإجازات، وباقى هذه الأمور.

فى إحدى المرات, أنبأنا أحدُ الرفاق, أن أحدَ موظفى مكتب الخدمات الطبية أبلغه, أن وحدة الزمالك ستغلق قريبا. ونصحه بالبحث من مكان جديد. والسبب؟.. قال : (وحدة المياه).

كنت أحبّ وحدة الزمالك، أمضيت بها أكثر من ثلاث سنوات. وكان الجميع أصدقائى: المرضى , والممرضات، والأطباء، والعاملات. كانت بيتى.

لذلك لم نصدق حرفاً مما قيل، وخصوصاً بعد أن سألتُ داليا فأنكرتْ تماماً, وقالت إن السبب الحقيقى هو أن الدكتورة المشرفة عندما أتت, لم يكن د. فوزى موجوداً بالشفت. فأمَرتْ بإجراء تحقيق. وهذا كل شئ.

ولأننى أثق فى داليا ثقةً عمياء، ليس لكونها ممرضةً ممتازة, ذات خبرة كبيرة فقط، ولكن لكونها أيضاً صديقة. عرّفتُها على سهير، وعرفتْنى على زوجها، بعد أن أفشتْ لى سرّها الخاص: أنّ (رفاعى) زوجها، والد (فرح)، يغسل أيضاً فى القصر العينى. وأنه كان أحد مرضاها. وبمجرد رؤيته، بدأت قصة حب لم تنته. وتزوجا، وأنجبا (فرح). ثم تركَتْ هى القصر العينى والتحقت بالعمل الخاص. (لم أبحْ لأحد بهذا السر من قبل)

ولأن رفاقى يثقون بى بدورهم: أحمد، أنور، إبراهيم، عم الشحات، عم بيومى، مدام إستر، جمالات، والباقون. قررنا الاستمرار فى الوحدة إلى أن تنكشف الأمور.

الجميع يحب داليا، داليا هى الوحدة، والوحدة هى داليا.

داليا هى أمنا جميعا. رغم أنها أصغر سناً من أصغر مريض فى الوحدة.

داليا, والدكتورة هالة, كفيلتان بجعل الوحدة مكاناً للبهجة.

الوحدة كانت عتيقة الطراز، وتحتاج إلى تحديث فورى، كان بها ستّ ماكينات جامبرو (الزرقاء ذات القطعتين).

٩٠% من الوحدات الخاصة بالقاهرة, مازالوا يستخدمون هذا النوع من الماكينات، على الرغم من شيوع الأجيال الجديدة التى تعمل بالكمبيوتر, ولا مجال فيها للخطأ منذ أكثر من ١٥ سنة. أى من قبل أن أبدأ الغسيل.

الفرق بين الجامبرو القديمة, والجامبرو الحديثة أو الفريزنياس, مثل الفرق بين سيارة فولكس موديل ٦٠، وسيارة بولو موديل ٢٠٠٦، كلتاهما فولكس، وكلتاهما ستقوم بتوصيلك من مكان إلى مكان.

ولكن لن يعرف الفرق إلا من جرب كلاً منهما.

رغم أننى أول ماغسلتُ كان بماكينة فريزنياس حديثة فى مسجد الاستقامة. وغسلتُ بها أيضاً فى أماكن عديدة أثناء رحلاتى إلى الغردقة، العريش، شرم الشيخ، أسوان، الإسكندرية، وحتى دسوق. وأعرف مزاياها جيداً. إلا أن الأهم عندى لم يكن كفاءة الغسيل، بقدر أهمية راحتى للبشر (الناس اللى روحى بين إديهم) طوال أربع ساعات، ولثلاث مرات فى الأسبوع: الممرض أو الممرضة أولا، ثم الطبيب, فالعاملة.

لابد أن أكون مرتاحاً ومطمئناً عندما أنام ودمى فى الخارج، يقوم بجولته المعتادة عبر الخراطيم والفلاتر.

هذا ما جعلنى أقضى ثمانى سنوات بكاملها فى مركز الهدى، قبل انتقالى للزمالك. فقط بسبب راحتى للناس: المرضى أولا، (معظمهم أصدقائى)، ثم محمود، الممرض القدير، وطارق، ونورا، والدكتور مجدى.

ولأن الوحدة كانت قد بدأت تتداعى، نصحنى محمود نفسه بالبحث عن مكان آخر. واختار لى وحدة الزمالك مع (داليا) وهو أيضا الذى رشّح لى مركز (الشباب ٢) حيث أغسلُ الآن.

داليا

الثلاثاء ٦/٦

١٠ مساء

– آلووه

– إزّزاايّياك.

– لسه فاكرة صوتى؟ إزيك يا داليا؟

– اسكت داحنا كنا لسه ف سيرتك أنا والدكتورة هالة النهاردة.

– بجد؟ وعاملة إيه الدكتورة هالة؟ واحشينّى واللهى.

– داحنا قطّعنا فروتك، والدكتورة هالة قالت: شوفى أسامة الندل، ماسدّق خلع من هنا وادى وش الضيف؟

– واللّهى ف بالى دايماً، بس أنا الفترة اللى فاتت دى كنت تعبان قوى، لدرجة أنى كنت باجهز نفسى للموت.

– ياخبر، داحنا بقى اللى مقصرين فى حقك. تصدق الدكتورة هالة من شهر كده حلمت إنك تعبان جامد، واحنا عمّالين نلفّ حواليك، ومحتارين مش عارفين نعملك إيه، وانت مابتستجيبش للعلاج. خلّتنى قلقت عليك بجد.

– أهو تقريبا فى الوقت ده كنت انا باودّع. كان حالتى وحشة قوى

– إنت زى القطط بسبع تروح. وعامل إيه دلوقت؟

– زى الجن. قوليلى انتى إيه أخبارك؟ وأخبار رفاعى؟ وأخبار الوحدة؟

– واللهى رفاعى كل ساعة فى حال. بيشتكى من عضمه قوى يا أسامة.

– اسكتى .. أنا اللى عشت فترة كئيبة. ماكنتش باقدر أمشى على رجلى من الألم. وقلت: بس، الهشاشة بدأت تشتغل. لدرجة أن عادل أخو سهير جابلى عصاية جميلة قوى، بس طلعت طويلة عليّا. عموماً أنا مابقيتش محتاجها، لأن الألم راح، ورجعت أمشى عادى زى الأول، بعد ما قعدت فترة طويلة أعرج.

تصورى كنت خايف لو رجلى خفّت، ماعرفش أرجع أمشى عدل تانى.

– هى هى هىء .. مش باقولك زى القطط بسبع تروح، بقولك إيه .. إنت من أول ماسبتنا وانت تعبان، وباين الوحدة الجديدة دى هاتجيب أجلك هى هى هىء .. ماتحول عندنا تانى. أنا مش قصدى أكرّهك فى الوحدة الجديدة، أنا باهزّر، بس احنا بجد مفتقدينك، ودايماً فى سيرتك.

– واللهى ونا كمان، هافكّر يا داليا، ومين عارف؟

– وبعدين احنا عملنا مكنة (باى كارب) مخصوص علشانك. يعنى مالكش حجّه.

– قوليلى، مين اللى موجود فى الوحدة دلوقتى؟

– مافيش غير محمد ، فاكرُه؟

– فاكره طبعاً.. بس؟.. محمد بس؟.. طب وبقية الناس؟

– الناس باينّها فقدت الثقة فى الوحدة.

– طب وبتروحو أيام إيه؟

– حدّ وتلات وخميس .. بعد الضهر .. من الساعة ٣.

– ليه كده؟

– أصل أنا رجعت القصر العينى تانى.

– ياشيخة، وطبعاً بتروحى الشفت اللى فيه رفاعى.

– لأ طبعاً، دنا اخترت وحدة الغسيل والديلزة، غير وحدة الملك فهد اللى بيغسل فيها رفاعى، عشان الإحراج، مانتا عارف.

– ولسه محمود ورحاب فى الملك فهد معاه؟

– أيوه

– وإيه رأيك فى الشغل فى القصر العينى بعد غياب السنين دى؟

– إسكت .. دى حاجة لا تسرّ عدو ولا حبيب.

– إزاى؟

– منتهى الإهمال، دى حتى وحدة الملك فهد اللى كانوا بيضربو بيها المثل بقت زبالة.

– مش معقول.

– واللهى.. دى العيانين يابنى هى اللى بتقفّل لنفسها. ومن كام يوم أبو واحدة صاحبتى مات ع المكنة.

– ألاّ إيه اللى ممكن يحصل يا داليا عشان حد يموت ع المكنة؟

– أكيد دخلّه (إير) أو جاله هبوط حاد ومحدش لحقه.

– طب خلاص خلاص، قلبك أبيض، وبتروحى إمتى القصر العينى؟

– باروح الصبح ، واخلص الساعة ٢ واطلع ع الزمالك.

– والدكتورة هالة بتروح يوم إيه؟

– بتروح التلات تيام، حدّ وتلات وخميس.

– واللهى!، ومين كمان بيبقى موجود؟

– أسماء، وأم محمد .. أم محمد القديمة.

– التخينة السمرا؟

– هى هى هىء .. التخينة السمرا. هاتجيلنا امتى بقى؟

تعالى اغسل عندنا غسلة مجاناً. واللهى باتكلم جد.

– هاجيلكو واللهى الخميس الجاى، انتو بتخلصو الساعة كام؟

– الساعة سبعة.

– خلاص، قبل كده هاكون عندكو إنشاء اللّه.

– فى انتظارك.

– ماشى يا داليا، سلّميلى على رفاعى وفرح.

– وانت كمان سلم على سهير.

– مع السلامة.

«سعد اللّه»

الأربعاء ١٤/٦

ا صباحا

قالت لى داليا يوماً:

– تخيّل إن المنيّل على عينه سعداللّه كان عاوز يتجوّزنى.

– طب ودي فيها إيه؟ وانتى كنتى هاتلاقى أحسن منه يعنى؟

– جتك نيلة، ده مجنون رسمي، والنبى ده لو كان آخر بنى آدم فى الدنيا.

كانت داليا قد عملت في وحدة (الهدى) عدة شهور بصحبة محمود، زميلها القديم فى القصر العينى، قبل استلامها وحدة الزمالك. وذلك قبيل انتقالي إلى هناك قادماً من مركز فيصل. قالت لي أيضا: إن سبب تركها للهدى، هو أنها ضجّت من حجم المخالفات فى الوحدة. وأنها بالفعل: (وحدة زبالة)

(هذه الزبالة أمضيتُ أنا فيها ثمانى سنوات كاملة). رغم ذلك لم أحقق فيها أية أرقام قياسية. إذ كان يسبقنى دائماً بخطوة.. سعداللّه.

كان قد بدأ الغسيل قبلى بعام كامل، فحاز قبيل تركى للهدى لقب: أقدم مريض يغسل بالوحدة. وهذا أضفى عليه قدراً لا بأس به من الأهمية. مما سمح له

بالتصرف مرتدياً مسوح الزعامة، وكأنه عمدة الوحدة. وهذا ماكان يمنحه الحق فى الصياح الدائم، والكلام عن أمور خاصة، بصوت عالٍ, وإيماءات بذيئة. والتريقة العلنية على محمود وطارق. ومغازلة نورا وأم محمد طوال الوقت.

إلا أنه كان فى كل ذلك خفيف الظل، مما جعل الجميع يتحملونه، رغم أنهم لا ينادونه سوى (بالواد سعد اللّه) ويصبّون عليه طوال الوقت جرادلَ باهظةً من التقريع والشتيمة والتأفف.

صار سعداللّه صديقى منذ أول يوم دخلت فيه (الهدى).

كان يقترب من الخمسين، بقامة نحيلة، بالغة القصر، وفم أدرد، ووجه أمرد، وشعر ناعم، وابتسامة دائمة.

كان محّيراً، لأنك لو نظرت لوجهه وقامته، لظننته طفلاً فى العاشرة. وإذا دققت النظر فى فمه وهو يضحك، أو إذا رأيته قادماً من بعيد، لقلت إنه عجوز متهدم قد تخطى المائة.

كانت وحدة الهدى فى البداية عبارة عن شقة واسعة فى عمارة كبيرة تطل على شارع الهرم، بها حوالى سبع ماكينات، وتعمل بكفاءة كاملة، ثلاث شفتات ثم أربع شفتات فى اليوم، إذ كان المرضى يتزايدون. بالإضافة إلى أن الدكتورة هدى صاحبة الوحدة, معارفها كثيرون فى القومسيون والتأمين ومسجد

الاستقامة، وهى الأماكن التى بإمكانها أن تنصح المريض المبتدئ بالذهاب إلى مكان محدد يحوز ثقتهم.

مما اضطر الدكتور هدى إلى شراء الشقة الملاصقة وتوسيع الوحدة. ازداد عدد الماكينات، وعدد المرضى، وعدد الشفتات. (المشرروع الناجح فى ازدهار دائم). مما أغرى كثيرين بفتح وحدات جديدة. إلى أن وجه لهم (إسماعيل سلام) وزير الصحة الأسبق ضربته القاضية.

إذ دخلت الدولة كمنافس لا يقاوم, لأصحاب الوحدات الخاصة. وأمّمت جزءاً كبيراً من اللعبة. فقامت بافتتاح عدة مراكز كبيرة بالقاهرة الكبرى. يتسع كل مركز لأربعين ماكينة تقريباً، وعدة مئات من المرضى. كانت كلها مراكز حديثة, بماكينات فريزينياس إلكترونية, وفلاتر f٦، f٥ غالية الثمن. فتم شفط المرضى من الوحدات. ناهيك عن المرضى الجدد.

هذه الكارثة أسفرت عن إغلاق نصف الوحدات الخاصة تقريباً. ومعاناة النصف الباقى من النقصان الحاد فى الأرباح، مما جعلهم ينتهجون سياسة التدليل والطبطبة على المرضى, حتى لا يتركونهم.

لم أحتجْ أنا وسعدالله لهذه الأحداث المأساوية حتى نعامَل معاملة خاصة، ونتصرف فى الوحدة كبيت لنا. كنا مدلّلين من قبل، وظللنا حجرين كبيرن فى أساس المكان.

أنا مثلا كنت دائم السفر، ودائم الارتباط بمواعيد ولقاءات. وكان هذا يضطرنى إلى تغيير ميعاد غسيلى, حتى يتواءم مع الظرف الطارئ. بمجرد أن أكلم محمود

أو طارق تنحلّ المشكلة. حتى أن طارق كان يفتح الوحدة مرّات بعد منتصف الليل، ليغسل لى وحدى، أربع ساعات كاملة، لو كنت سأسافر فى اليوم التالى. كى أسافر وأنا نظيف تماماً، وأتحمل أيام السفر بلياقة جيدة، حتى ميعاد الغسيل القادم.

أيضاً لأن دمى كان ولازال سريع التجلط، فكان يجب تمرير الفلتر بالهيبارين فترةً كافية. فكان محمود يجهز المكنة الخاصة بى، ويتركها تعمل لنصف ساعة، وأحياناً ساعةً كاملة، والهيبارين يتخللّ أدق أنسجة الفلتر. وقبيل اكتمال التمرير, يتصل بى فى البيت قائلا:

– ياللّه ياسمسم كله تمام.

لم أحتج إلى وقت طويل لأكتشف أن لسعد اللّه يداً طولى فى مسائل (المزاج). فى الحقيقة، أستطيع القول أن لى مجسّاتى الخاصة التى تمكننى من اكتشاف أخوتى فى (الضّرب).

يحدث هذا دائماً. لأننى فى احتياج دائم لمصادر متوفرة للصنف.

منذ أن سكنتُ القاهرة وأنا أعيش على مصادر الأصدقاء.

لم يكن لى مصدر مباشر, ولم أسعَ لذلك فى الحقيقة. رغم أن اعتمادى الدائم على الآخرين فى تأمين الصنف لى, كان يجعلنى دائما حانقا ومضغوطاً، وتحت رحمة الظروف التى لاأملك التحكم فيها.

فى كل مكان غسلتُ فيه.. لم تكن تمضى عدة أيام حتى أظفر بأخ جديد, أو أخوة جدد.

فى الاستقامة، أول مكان غسلت فيه، كان هناك يحيى, الممرض. وفى الهدى, كان هناك سعدالله، وإبراهيم، و محمد (رحمه الله) وأخيرا بطّة (رحمها الله أيضاً).

لكننى أعترف، أن أفضل بانجو شربتُه فى حياتى على الإطلاق, كان عن طريق سعدالله.

كان نوعاً غريباً , لونه أخضر فاتح (دمّرلى يقينى السابق: أن الأنواع القوية, دائماً يكون لونها ضارباً إلى الصفرة, أو اللون الذهبى). وكان خالياً تماماً من البذور (على غير العادة) وأوراقه مكدّسة، وله رائحة نفاذة، كنت أشمها وهو بداخل الورقة الملفوفة، فى جيب سعدالله، قبل أن يلقانى بعدة أمتار.

كنت أحتفى به احتفاءً خاصاً, فأجهز له علب البرشام الأسطوانية مختلفة الأحجام، فواحدة للبانجو الخام، وأخرى للمفروك الخالى من الشوائب, والأغصان الصغيرة، وثالثة للبانجو المخلوط بالتبغ والجاهز للّف.

كنتُ ألفّ سجائر نحيفةً جداً, وقصيرة. لأننى لم أكن أحتاج سوى لنفسين أو ثلاثة, حتى أصنع الدماغ القوى, الذى يظل عالياً ومستغنياً لعدة ساعات.

{ فكرت كثيرا: كيف يتسنى لهذا (الاصطف) القوى – بل الأقوى، من واقع تجربتى المتواضعة – أن يكون خالياً تماماً وبنحو خارق للعادة هكذا, من البذور؟

شغلنى الأمر أياما عديدة. أشعل السيجارة، وأشرع فى التفكير. إلى أن جمعتنى جلسة ثنائية بالصديق

(X)، أحد الرفاق المخلصين، بل المتفانين فى إخلاصهم, للضّرب وفنونه.

بحثنا الأمر .. قتلناه بحثاً. إلى أن خرجنا بنظرية محكمة، مازلنا .. مازلت أنا على الأقل, مرتاح الضمير تجاهها، بل ومصدقاً لها تماماً:

" البانجو(القنّب الهندى) نبات مثل أى نبات منفصل الجنس، يوجد منه شجيرات ذكور, وأخريات إناث، يتجاورْنَ فى الحقل الواحد. الذكر يضم عضوَ الذكورة (المُتُك) ذى الأسدية (جمع سَدَاة)، التى تمتلىء نهاياتها بكميات كبيرة من حبوب اللقاح. بينما الأنثى هى صاحبة المتاع، ذى البَتَلات، التى تحتضنُ فى جوفها البويضات، حيث تتم عملية التخصيب, عقب انتقال حبوب اللقاح إليها، إما عن طريق الرياح, أو عن طريق الحشرات والفراشات.

ولكى تنجذب الفراشات، لابد من إغرائها. وهنا ينشط النبات فى معمله الخاص، من أجل إفراز مادة ذات رائحة جذابة، وبتركيز معين.

(تلك المادة هى بُغية كل طالب للبانجو أو الحشيش. ومن أجلها هى يركب الصعاب, ويصاحب الأهوال. والتى يتوقف تأثيرها، ومستوى الأدمغة التى تصنعها، على قوة تركيزها فى أوراق وعرانيس النبات)

تأتى الفراشات منجذبة إذن. وتأخذ فى التنقل، كعادتها، من مكان إلى مكان، فتعلق بأرجلها وبأجنحتها حبوب اللقاح، لتنتقل بذالك من المتك إلى المتاع. تسقط حبة اللقاح على البويضة، وتحدث عملية التخصيب.

(الحشرات مهمّة إذن)

وإذن هناك ارتباط شرطىّ بين إفراز المادة وقوة تركيزها من جهة، وبين حدوث عملية التخصيب من جهة ثانية.

يظل النبات يفرز تلك المادة إلى أن يحدث التخصيب. والطبيعى أنه بمجرد حدوث التخصيب, يكف النبات عن إفرازها مجدّدا .

طيب .. ماذا لو تأخر التلقيح؟

بالطبع لايجد النبات حلاّ سوى إفراز المادة أكثر، فيزيد تركيزها، لكى تسرع الحشرات بالمجىء, وفى أرجلها الخير.

إذن، فالأفضل ألا يحدث التلقيح من الأساس.

ولذلك أعتقد أن هناك فى كل حقل من حقول النوع القوى ذاك, فلاح يمرّ، ليقلع الشجيرات الذكور من جزورها، مُنقّيا الحقل منها، تاركاً الحقل أشبه بقطيع من الثكالى النائحات، مات للتوّ فحْلُهم الكاسر.

كلما تأخر التلقيح، يجنّ جُنونُ الإناث الهائجة، فتفرز المادة بغزارة.

تأتى الحشرات وليس عالقاً بأرجلها وأجنحتها شىء، ولا يحدث التلقيح.

وهكذا يتصادف أن نجد أنفسنا أحياناً أمام (اصطفّ) كهذا، شديد القوة، وفى نفس الوقت خالٍ تماماً من البذور".

(بزغت فى ذهنى الآن فكرة, جعلتنى أعيد النظر، لأظن أن هناك ثغرةً فى النظرية, كفيلةً بقلْقَلَتها، إنْ لم

تتمكن من تقويضها.

إذ ربما يسألنى سائل: والشجيرات الذكور, فى الحقول العادية, التى لم يفطن فلاحوها للخدعة بعد .. ما مصيرها؟ إنها بلا بذور أيضا – التلقيح يحدث بالطبع فى الإناث – ، ولكن لم يتصادف أن وقع فى يد أحد الضاربين حتى الآن، عرنوسٌ خال من البذور دون أن يتّفق له أن يكون قوى التأثير كهذا.

وحقْنا للجدال والمهاترات، وبدون أن أكلّف نفسى عناء الرد. أرى أن فى إمكانى الآن إجراء تعديل بسيط فى النظرية، حتى تكفّ الألسنة، ويصمت المشكّكون (أكتبه على مسؤوليتى الشخصية, مع الاعتذار للصديق (X).. شريكى فى النظرية.):

ماذا لو كان البانجو نباتاً خنثى؟ .. أى أنه يحمل على متْن الشجيرة الواحدة, عضوَى الذكورة والأنوثة معاً (المتوك، والأمتعة). وأنا أميل إلى تصوّر أن لكل شجيرة متكٌ واحدٌ, يوجد فى نهايتها (شوشتها) بينما تمتلىء الأفرع والأغصان بالعديد من الأمتعة – البراعم – العرانيس.

ولذلك لن يكون لزاماً على الفلاح أن ينحنى ليقلع الذكور من جذورها. بل بإمكانه أن يقطف الشواشى فقط, وهو سائر، بدون أى انحناء.}

لكن هذا لا ينفى تعرّضى لشتى أنواع العذاب بسبب سعدالله. وذلك لأنه كان ماهراً فى التهرب, وعدم الوفاء بالمواعيد التى سبق واتفقنا عليها. وكان

دائماً يأتى لى فى اليوم التالى بحجج وأسباب غير مقنعة، ويحلف أغلظ الأيْمان، ولم أكن أصدّقه طبعاً.

لكننى اهتديت إلى السبب وحدى: وهو أن كل من كان يتعامل معهم من تجار المخدرات، وهم جميعاً شباب فى مقتبل العمر، لكنهم بالغوا الضراوة، ولهم جميعاً تجاربٌ عديدة فى السجن والملاحقة. كانوا جميعاً لا يثقون به, لأنه بالتأكيد كان قد أكل عليهم أموالاً صغيرة، مرات عديدة.

ولذلك كان فى كل مرة يقول لى اسماً جديداً, سنجرب التعامل معه هذه المرة.

لم يكن كلانا يمتلك موبايل. فكنت أشترى كارت ميناتل له, وآخرلى. حتى يستطيع هو ملاحقة التاجر ليحدد موعداً. وأستطيع أنا الآخر ملاحقته للاطمئنان على الموعد, والمكان, وهل أفلح أم لا؟

ولأنه أيضا لم يكن يمتلك تليفوناً بالبيت، أعطانى رقم الجيران، ورقم كشك سجائر يجلس عنده أحياناً، وأخيراً رقم المقهى الذى يقضى عليه معظم أوقاته.

وعندما يحدث المراد، نتفق على المكان الذى سينتظرنى فيه، وغالباً مايكون بشارع البحر الأعظم, أمام مكتبة سوزان مبارك. لأن بيته يوجد فى حىّ عتيق موغل فى شعبيته, يقع خلف المكتبة مباشرة.

نلتقى، ثم نذهب فى عربتى البولو إلى المكان الذى حدده التاجر، ويقوم سعدالله بالاتصال به ثانية، فيحدد له التاجر غالباً مكاناً آخر (إجراءات أمنية). وأخيراً نظفر بالبضاعة، ونركن فوراً فى أول شارع جانبىّ، ونفتح

الباكيتّة أو (الطلقة) ونشمّ، ثم نرقص فرحاً, أو نتحسّر, حسب جودة الصنف. وقبل أن أغلق الباكيتة أقول له: (مدّ إيدك يا سعد) فيمد يده, ويأخذ أكبر العرانيس وأفضلها. ثم أقوم بإرجاعه إلى حيث التقطْتُه، وأعود غانماً إلى البيت.

ذات مرة، وكنت قد انقطعتُ فترة عن التعامل معه, أولاً: لضجرى من طريقته، ثانياً: لظهور اللورد (سليمان) السودانى الجنوبى، صانع الأدمغة لمعظم مثقفى القاهرة, لسنوات عدة، قبل أن يختفى فجأة، ويترك وراءه أسئلة بلا إجابات، وحسرات مُرّة.

حتى أن إبراهيم منصور (رحمه اللّه) كان يردد دائماً:

(سليمان... جرحٌ لا يندملْ)

قلت لسعد اللّه وأنا مستلق على السرير المجاور.

– إيه أخبار المسائل؟

– أبداً، العيال انقبض عليهم واحد واحد, والسوق شرقان.

– طب وانتَ .. بتمشىّ أحوالك إزاى؟

– أقولك بس ماتسيّحْش؟

– يا جدع عيب, انت لسه هاتجربنى؟

فاقترب برأسه وقال هامساً:

– بطّة.

– بطة مين؟

فأومأ برأسه ناحية سرير بآخر الصالة.

كانت فاطمة مدخنةً شرهة، سمراء، شاحبة، ضئيلة الحجم، تلبس الأسود دائما (عرفتُ من سعداللّه, أن

زوجها تاجر المخدرات فى السجن, وهى التى تقوم بالعمل فى غيابه)

ظلّت هى مصدرنا لفترة قصيرة قبل أن تختفى.

عندما سألت محمود:

– هى بطة حصلّها حاجة؟

كنت أخشى أن تكون قد ماتت. لأننى تعودتُ على ذلك. عشرات الرفاق رحلوا بهذه البساطة. كلما أفتقد أحدهم سائلا:

– أمّال فلان ماجاش النهارده ليه؟

يكون الرد الجاهز دائماً:

– فلان؟.. تعيش انتَ.

لكن محمود فاجأنى هذه المرة.

– بطّة فى السجن. وبتيجى بالكَلَبْشات تغسل عندى فى القصر.

– وعاملة إيه؟

– حالتها وحشة جداً، من قلة الغسيل طبعاً، ونفسيتها فى الحضيض، وبتفوّت بالجلسة والجلستين. وقلتلها مليون مرة, يابنتى كده هاتموتى، لازم تيجى فى ميعادك. بس تقول لمين؟

بعد فترة، وأثناء التركيب، فاجأنى محمود قائلاً:

– بطّة !

– مالها؟

– تعيش أنتَ.

عندما زرتُ مركز الهدى فى المرة الأخيرة منذ حوالى ستة أشهر، وكنت ذاهباً لأغسل غسلة على حسابى

الخاص، بعد أن أظهر رسم القلب والموجات الصوتية, أن عندى (ميّه ع القلب), ويجب أن أغسل غسلةً رابعة, لمدة شهر أو أكثر.

وكنت وقتها فى مرحلة انتقالى من (الزمالك) إلى (الشباب٢). فكرت بالطبع فى (الهدى) لإحياء ذكرى الأيام الخوالى، ورؤية الجميع , وقضاء وقت كافٍ معهم.

قالت لى أم محمد:

– الواد سعدالله بيوصلك سلامى؟

– أبداً، ولاشفتُه وحياتك من ييحى سنة تقريباً.

– شوف الواد الكداب المعفّن, ده بيقول أنه بيكلمك على طول, وبتشوفو بعض دايماً.

ثم نادت عليه, وواجهته أمامى، فضحك كعادته وقال:

– ياأوسْ .. ماتليفونك ضاع منى. وتفتكر كنت أقولّها إيه يعنى؟

لاحظت أن سعدالله يشغل نفس السرير الذى شغلَه طوال ١٣ سنة أو أكثر, وأنه يغسل الآن بفلتر f٥, مميزاً عن بقية المرضى. وطبعاً مازال محافظاً على عاداته. إذ لا يبدأ الغسيل إلا بعد أن يفطر, ويشرب الشاى, والسيجارة. وعندما فكرت فى حكاية الفلتر, اهتديت أيضاً إلى السبب وحدى:

سعدالله يغسل على نفقة الدولة (قومسيون طبى). أى أنه ليس له تأمين صحى، لأنه ليس موظفاً. هو يعمل, أو كان يعمل سائق ميكروباص, على عربات الفولكس المنتشرة بطول شارعى فيصل والهرم.

وليس له أى دخل على الإطلاق. ولأن مرضى القوسيون تدفع عنهم الدولة ثمنا للجلسة, أقل مما يدفع التأمين الصحى. دائماً مايشتكى أصحاب الوحدات من أن الجلسة تكلفهم أكثر مما تدفع لهم وزارة الصحة.

ولذلك يلجأ أصحاب الوحدات إلى إغراء مرضى القومسيون بالاستغناء عن الجلسة الثالثة, والاكتفاء بجلستين فقط فى الأسبوع، فى مقابل إعطائهم ١٠٠ جنيه فى الشهر. وبما أن الدولة تدفع ١٠٠ جنيه مقابل كل جلسة, فيتم بذلك توفير ٤٠٠ جنيه فى الشهر, يعطون المريض الغلبان ١٠٠, ويوفرون ٣٠٠.

لكنى أعتقد أن سعدالله ليس بهذه السذاجة. فهو يأخذ بالتأكيد مبلغا أكبر من الـ ١٠٠ جنيه, ويشترط مع ذلك الغسيل بفلتر ممتاز.

عندما رآنى سعد الله تلك المرة قال لى:

– شكلك مش عاجبنى .. انت غاسل امتى؟

– امبارح.

– امّال وشك منفّخ كده ليه؟

– ماحدش عارف السبب لسه.

– وبتقول كمان عندك ميّه ع القلب؟

إسمع يا أوسّ، انت غلطت لما سبت (الهدى). اسمع كلام أخوك وارجع تانى، مش هاتلاقى ممرض أحسن م الواد محمود. وصدّقنى مافيش فى مصر كلها وحدة ميّة أحسن من اللى عندنا هنا. ويا أخى .. نرجّع أيام زمان تانى.

– ماشى يا سعد.. هافكّر واللهى.. خلّيها على الله.

فشل كلوى

الأحد ١٨/٦

١١ صباحا

٥/٢/١٩٩٥. لن أنسى هذا التاريخ أبداً. كان فاصلاً بين عهدين. انتهت علاقتى بأطباء المسالك البولية تماماً. تلك العلاقة التى بدأت عام ٧٣ واستمرت طوال ٢٢ عاماً، لتبدأ علاقتى الجديدة بأطباء الكلى وعالم الغسيل.

عندما رأى د. عمرو عبد الحكيم أستاذ المسالك آخر تحليل لوظائف كليتىّ، نظر لى صامتاً لعدة ثوانٍ وقال:

– اسمع يا أسامة .. أنا هابعتك لصديق ليّا, استشارى كلى ممتاز, هو اللى هايشرف على علاجك من دلوقتى وطالع. أنا للأسف ماقدرش أفيدك دلوقت بحاجة.

وذهبتُ إلى الدكتور حلمى أبو زيد. كنت وقتها أعانى من الغثيان والقئ المستمر، ولم أكن أعرف لذلك سبباً.

عندما رأى تحليل وظائف الكلى (البولينا، والكرياتينين) كانت النسب مرتفعةً جداً.

الكرياتينين, ذلك المؤشر الذى لا يكذب أبداً، والذى يدلّ بدقة على حال الكلى وكفاءتها، النسبة الطبيعية له فى الدم من (٠.٥ إلى ١.٥) ملجم فى اللتر.

كانت النسبة عندى قد وصلت إلى ٩ ملجم فى اللتر.

قرأ د. حلمى رسالة د. عمرو ونتيجة التحليل وقال:

– للأسف يا أستاذ أسامة, نسبة الكرياتينين عندك عالية قوى، إنت كان لازم تغسل بدرى عن كده.عموماً أتمنى إنك ماتتأخرش كتير. إنت بتشتغل إيه يا أستاذ أسامة؟

– ماباشتغلش.

– طيب, يبقى هاتروح القومسيون الطبى بالجواب ده, والنتائج دى, وهم هايعملو اللازم. بس ده هاياخد وقت, وعشان كده هاديّك جواب تانى لمسجد الاستقامة. وده تابع للجمعية الشرعية. ودول ناس كويسين قوى. ممكن تغسل عندهم مجاناً لغاية ما ورقك يخلص فى القومسيون.

وخرجت من العيادة بائساً, ممتلئاً بالبكاء والرثاء لحالى. رغم أننى كنتُ أعلم طوال العشرين عاماً الماضية, أن هذا اليوم آت لا محالة. إلا أننى فوجئت كمن سمع حكماً بإعدامه، أو حبسه فى حفرة تحت الأرض لباقى حياته.

كان وقع كلمة(فشل كلوى) أو (غسيل كلى) على المسامع أشدّ ضراوة من وقع كلمة(سرطان).

أذكر أن كل من كان يسألنى عن حالتى وقتها وأقول له أننى سأغسل، كانت الإجابة تأتى عفوية وسريعة:

– يا ساتر، لا يا راجل، الشرّ برّة وبعيد، إنشاء اللّه تكون حاجة بسيطة، ماتشوف دكتور تانى.

كانت الصدمة مروّعةً للعائلة أيضاً. وبدأ التفكير من أول يوم فى عملية الزرع. وتم تحديد المكان: (مركز المنصورة للكلى والمسالك البولية). وطالما هناك زرع, إذن يجب أن يكون هناك متبرع، ويجب أن يكون قريباً من الدرجة الأولى, أو الثانية على الأكثر. هذه شروط د. (محمد غنيم) زعيم المركز.

وقف فى أول الصفّ أبى، ووراءه أخى علاء، ووراءهما عمى عبد الستار. وفى الصفّ الثانى محمود ابن عمتى، وشريف ابن عمى. (أمى تعانى من متاعب بالكلى منذ سنوات).

استطاع عمى عبد الستار أن يأتى بخطاب توصية من رئيس الشركة التى يعمل بها، وكان صديقاً حميماً للدكتور غنيم.

أيضاً كنت أعمل وقتها مُصحّحاً فى جريدة الأهالى، وعندما تغيّبت عن الذهاب لفترة، أخبرتْهم إيمان مرسال بالمصيبة، فبذل حلمى سالم وعبد العال الباقورى أقصى ما يستطيعان، ودعمانى بخطاب توصية من (خالد محيي الدين), صديق (غنيم) الشخصى. وذهبتُ للقاء (د. غنيم) مدجّجاً بالتوصيات. والتقيتُ الرجل المهيب، واكتشفتُ أنه لم يكن هناك داع لكل هذه الضجة. فالرجل فى غاية اللطف والدّماثة. قرأ الأوراق, وشاهد الأشعة والتحاليل ورسم المثانة, وقال: إذا شئتَ الزرع فيجب أن تعلم أن مثانتك هى أصل الداء، ويجب استئصالها قبل استئصال الكلية, وزرع الكلية الجديدة. وسنستبدلُها بمثانة صناعية, أى بجزء

من القولون، عبارة عن كيس لتجميع البول، يوضع فى تجويف البطن، ويتم تفريغه كل فترة, عبر أنبوب يخرج من الجنب يشبه الحنفية، يتم التحكم بفتحه وإغلاقه.

وقال أيضا: لقد أجريتُ هذه العملية عشرات المرات، وهى ناجحةً تماماً فلا تخشَ شيئاً. ثم أرسلنى للدكتور محمد صبحى استشارى الكلى.

قال لى دكتور صبحى:

– إنت عاوز رأيي؟ خليك ع الغسيل أفضل (كنت وقتها أغسل منذ مدة بالاستقامة, وكانت حالتى بالغة السوء).

أخبرنى أن الغسيل فى بدايته صعب، ولكن عندما أعتاد عليه, سيكون أفضل بكثير من الزرع.

فى نفس الوقت كانت تحاليل التوافق فى عينة الدم والأنسجة تجرى بمعدل سريع. خرج أبى من الصف، وفى إثْره عمّى، وأكمل علاء. كان علاء يوافقنى فى كل شئ, حتى واجهتنا مشكلة فيروس سى (يجب أن يكون دمُ المتبرع خالياً تماماً من أى فيروس)

وخرج علاء فى النهاية, لاحقاً بأبى وعمى.

وبدأت أقتنع برأى د. صبحى, وأستبشع فكرة المثانة الصناعية, وحنفية الجنب.

حتى أصرّتْ إيمان على أن تجرّب حظّها:

أتت لى يوماً وفى يدها صورة أشعة (كانت تحمل كليتين صغيرتين فى جنبها الأيسر). وقالت لى ببساطة: خذ واحدة.

ذهبنا إلى المنصورة، أنا وإيمان وحَكَمْ، للقاء إبراهيم البَجَلاتى، صديقهما, وطبيب المسالك النابغ, والشاعر أيضاً. فحص إيمان, وأجرى لها أشعّةً جديدة, ثم أنبأنا أن إيمان فى مشكلة لا تقل عن مشكلتى. إذ أن الكليتين التوأمين صغيرتان جداً، لا تكفى واحدتهما لى ولا لها.

وتم إحباط الحلم الصغير الذى راودنى فى الأيام الماضية. وهو أن أحمل جزءاً صغيراً وحيّاً من إيمان صديقتى، داخل أحشائى, إلى النهاية.

صلاح

الأحد ١٨/٦

اظهرا

أول أيام الغسيل. وأول يوم لى فى الاستقامة. الساعة السادسة صباحاً. المرضى يجلسون هم وذووهم بالاستراحة. سهير تجلس بجوارى. المكان يشعّ نظافة وألقاً. العاملات يذرعن المكان, كلّ منهن تحمل منشفةً وجردلاً لمسح وتلميع الأرضية والحوائط. فى انتظار قدوم طاقم التمريض أولاً. ثم فى أعقابهم يأتى الطبيب.

جاء صلاح. فتح الوحدة, وأضاء النور. قام المرضى، وقمت أيضاً. خلعو أحذيتهم, ووضعوها فى الجزّامة, وانتعلوا شباشب بلاستيكية متماثلة. فعلتُ مثلما فعلوا. ودخلتُ الوحدة فى النهاية. المكان مهيب. الباب فى المنتصف. نظرتُ يميناً ويساراً: صالة الغسيل مترامية الأطراف. ١٢ سريراً, بجوار كل سرير ماكينة فريرنياس عملاقة، تتدلّى منها خراطيمُ بلاستيكيةٌ شفافة (بعد قليل .. ستكون خراطيمَ بلاستيكيةً حمراء).

ذهب كل مريض إلى سريره, بعد أن صعد على الميزان أولاً. كل مريض يعرف وزنه الجاف. هو الآن يزيد

عدة كيلو جرامات بالضرورة. سيتم سحبها أثناء الغسيل ليعود إلى وزنه الجاف مرة أخرى.

نظر لى صلاح مبتسماً:

– أهلاً وسهلاً.. نوّرتنا.. اسم الكريم إيه؟.

– أسامة.

– طيب يا أستاذ أسامة, إطلع ع الميزان كده، ثم ألقى نظرة قائلاً:

– انت وزنك الطبيعى كام؟

– مش عارف بالظبط.

– دى أول مرة تغسل طبعاً؟

– أيوه.

– طيّب اتفضّل.

وأشار إلى السرير الفارغ.

انهمك صلاح وبقية الممرضات فى التركيب للمرضى الآخرين. وتُركتُ وحيداً لفترة. بدأت الماكينات تومضُ بالأحمر والأصفر والأخضر. وبدأت تصدر أصوات إنذار حادة:

تيت تيت... تيت تيت... تيت تيت.

ثم اختفت الأصوات, ومعها اللون الأحمر, وهدأت الماكينات. البامْب تدور، والدم يملأ الخراطيم والفلاتر، والمرضى سحبوا على أنفسهم الأغطية, وبدأ بعضهم فى الشخير.

ثم أخيراً جاءنى صلاح ضاحكاً:

– إيه؟ .. ياللّه بينا؟

فاعتدلتُ جالساً على السرير, ونظرتُ إليه متسائلاً, فقال:

– انت خايف؟ .. بصّ ياعمّ أسامة، إحنا هانركب من الفخد كام مرة, لحدّ ماتعمل العملية فى دراعك. وأنصحك تعملها بسرعة, وبعدها هانركّبلك من دراعك زى الناس دول.

كانت الممرضة تقف وراءه ممسكةً بطبق كبير ممتلئ بمحلول التعقيم، يرقد فى قاعه سلك طويل, يلتف حول نفسه كثعبان نحيل نائم، وقسطرة بيضاء طويلة، تنتهى بخرطومين قصيرين. أما هو, فكان يمسك بيده إبرة لم أرَ أطول منها فى حياتى, وقال لى:

– ممكن تنزّل البنطلون شويه؟.. فأنزلتُه وعينى على الإبرة.

– ياعم ماتخافش, دى زىّ شكة الدبوس, صدقنى، مش هاتحس بحاجة.

ثم وضع أصابعه أعلى فخذى، بجوار مشعرى، وأخذ يتحسّس قليلاً.

– ماشاء اللّه, وريدك زى الفل.. ياللّه .. إكتمْ نفَسَك.

ثم رشقَ الإبرة وأنا أقمعُ صيحة الألم, مطبقاً عليها شفتىّ.

– مش قلتلك؟.. بزمتك حسّيت بحاجة؟

كان خيطٌ نحيلٌ من الدم يسيل من مؤخرة الإبرة على فخذى. مدّ يده بالجوانتى, والتقط السلك الطويل من قاع الطبق, وأخذ يدكّك به الإبرة, حتى علامة محددة، ثم نزع الإبرة من حوله وبقى السلك فى الوريد.

مدّ يده ثانيةً والتقط القسطرة, ونظرلى:

– يالله يا بطلْ.. اكتمْ نفسكْ.

– ياعم بطل إيه بس؟ .. انت هاتغرز دى كلها؟ .. ومن غير بنج؟

– أنا غشّيتك المرة اللى فاتت؟ .. أهى دى ماتفرقش حاجة. صدّقنى.

– بجدّ يا صلاح؟

– بجدّ.

ثم أدخل نهاية السلك فى فتحة القسطرة وأخرجه من الفتحة الأخرى، وبدأ ينزل بالقسطرة المحيطة بالسلك, حتى وصل إلى فخذى، ثم رمقنى بطرف عينه:

– يالله يا وحْشْ، إكتم نفسك. وغرزَ القسطرة بقوة.

صحت بأعلى صوتى:

– آآآه .. لقد خدعْتَنى يا صديقى .. (قلتها هكذا).

ترك صلاح باقى مهمة التركيب للمرضة المصاحبة له, وتفرغ هو للضحك.

– إنت قلت إيه؟ .. إيه العسل ده؟ .. واللهى انت عسل .. لقد خدعتنى يا صديقى.

ظل صلاح طوال فترة تواجدى فى الاستقامة, كلما رآنى, يهزّ رأسه قائلاً: لقد خدعتنى يا صديقى.

كنت أحب صلاح فعلاً, وأرى فيه دائماً، هشاشة الأمهات, وجدعنة أولاد البلد. صلاح, كان هو البوابة الرحيمة التى دلفتُ منها إلى عالم الغسيل .. عالم الغسيل الواسع الممتدّ .. عالمى.

مرثيّة

الثلاثاء ٢٠/٦

اظهرا

س قابل ص وسأله:
- إزيّ الحال..
- واللهى الحال واقف اليومين دول.
- طب ياشيخ احمد ربنا انك لسة عندك حاجة بتُقَف.
لطالما أضحكتنى هذه النكتة, التى حدثت بحذافيرها، وحكاها لى بطلها (أحمد يمانى)، عندما التقى (حسن سرور), فى إحدى ردهات هيئة الكتاب, حيث يعملان.

أتذكر هذه النكتة الآن، هى ونكات أخرى، كدعامة ناعمة, لذكورتى المختالة، التى تنظر الآن بعين قانعة, إلى ماضٍ قريب، كانت تبرطع فيه، وترفس الهواء بقوة، فتتطاير زخّات العرق، ويدوّى صوت عروقها النافرة، وزفيرها الملتهب.

أتذكّرها مبتسماً وأنا أنظر لحالى. حالى الذى لا أنسى أبداً, أنه كان مصدر اعتدادى، وعُكّازى المستتر الذى أرتكز عليه، والذى عصمنى فى فترات عصيبة, من

التوهان فى ظلمات البحث عن حجر أو جدار, يمنع الذات من البعثرة.

حتى نضجت تلك الذات بطيئاً، على نارٍ هادئة، لتكتشف أن ركيزتها الخاصة، ماهى إلا هى نفسها.

أنظر لحالى, فأرى كلبىَ الهرمْ، كلبىَ الحبيبْ، الذى يرقد بجوارى على السرير، سانداً رأسه على يديه المفرودتين، وناظراً إلىّ طوال الوقت بعينين ناعستين، والذى يفاجؤنى أحياناً وأنا ذاهلٌ عنه، بإفاقته، وارتعاشة عضلات جسده، وطرقعة أذنيه، ونباحه القادم من عالم آخر. ثم اشرئبابه، محاولاً لمس كتفىّ بيديه, واضعاً عينيه فى عينىّ بالضبط, وكأنه يقول لى:

أنا هو, كلبك السلوقىّ، الذى طالما قنص من أجلك الطرائد، وطالما ملأك بالزهو الصامت وسط بقية الصيادين.

ثم لا يلبث أن يعود لسُباته العميق.

نمْ يا صديقى. نمْ وحررْ نفسك من الخجل الذى لا يليق بك. ومن إحساسك الدائم بالتقصير، وخذلانك لى فى لحظات حرجة. حررْ نفسك من وهم إرضائى. واعلم أننى فخور بك. وأننى راضٍ تماماً. ولكى تطمئن:

اعلم أيضا أننى بتّ لا أهوى الطّراد.

وبتّ لا أنخدعُ بمرأى الطرائد التى تتقافز أمام عينىّ طوال الوقت.

الطرائد فى الرأس يا صديقى.

إنها تسقط من تلقاء نفسها بين يدىّ الآن كلما رغبتُها.

فقط عليّ أن أرغبَها بقوة.

د.مصطفى الديوانى

الأربعاء ٢١/٦

٢ صباحا

(عيد الفطر – أواخر أكتوبر ١٩٧٣)

الأفراح, والليالى الملاح, مازالت لأصدائها رائحة قوية تعبق بها الأجواء. الجميع سعداء: الأباء والأمهات، الجيران والأقارب، الكبار والصغار. الراديوهات لا تكفّ عن الغناء, والغناء, والغناء:

(وعبرنا الهزيمة.. يا مصر يا عظيمة)، (عاش اللى قال للرجال عدّو القنال)

الجميع سعداء. غير أننا, نحن أطفال وصبية محلة مالك، كنا الأكبر حظاً، والأوفر نصيباً من تلك السعادة. ذلك لأننا كنا فى أجازة استثنائية بمناسبة الحرب، طالت حتى التحمت بأجازة العيد. جيوبنا مازالت تشخلل بالقروش المتبقية من العيدية. كل صباح نسأل أنفسنا: كيف نستثمر تلك الإجازة الرائعة التى توشك على الانتهاء؟

كنا نلعب، ونلعب، ثم نستريح,.. لنقوم ونلعب.

أنا صانع الكرات الذى لا يبارى، البالونة التى ترتدى بالونة أخرى، والنفخُ حتى تصبحا بحجم وصلابة معينين.

ثم الخِرَق, والخيط المتين. خرقة, وعدة لفّات, ثم خرقة, وعدة لفّات. اللفّات فى كل الاتجاهات، وبنفس

القوة، حتى تكتمل الاستدارة. وأخيراً (فردة الشراب) زاهية اللون (غالباً من دولاب أبى)

الأولاد الآخرون حمقى. كانوا يلعبون بكرات أشدّ حماقة. فواحدة شبه بيضاوية, وأخرى لها ثؤلولٌ بحجم كرة صغيرة. كانوا يشوطونها قاصدين اليمين، فتذهب أقصى اليسار. وإن شاطوها فى ضربة جزاء، كانت تفاجؤهم وتطير إلى الخلف.

ثالث أيام العيد.

كنا نلعب: أنا, وعلاء, وخيرى حمتّه, ومحمد غراب, وآخرون، متّخذين مساحةً فارغةً بين الدوّار, وبيت عمى الشيخ محمد, ملعباً. كان عمى الشيخ محمد قد مات منذ سنوات. ومازالت الأسرة: عمتى رشيدة وأولادها (محمد، وعادل، وعلى) يأتون لقضاء الإجازات فى البلد. فتدب الحياة فى البيت الجميل, ذى البلكونة الدائرية، التى تظل مأهولة برجال وشباب العائلة. حيث يمرون للسلام والائتناس بأبناء الشيخ الجليل, الآتين من القاهرة.

كنا نلعب، وإذا بى فجأة، وأثناء انهماكى فى اللعب، أجدُنى منطرحاً على الأرض، غير قادر على تحريك ساقىّ.

أصابنى الذعر, وعلا صوتى بالصراخ، فتوقف الأولاد عن اللعب، وفرّ بعضهم إلى بيوتهم خوفاً، ووقف الباقون مذعورين.

جاء أبى يجرى ومن وراءه الجميع. حاول إيقافى على قدمىّ، لم أستطعْ، حملنى على كتفه, وأدخلنى البيت.

ولّت الأفراح, وحلّت محلّها الأتراح. أمى وبقية النسوة يبكين بلا انقطاع، وأبى ساهمٌ لا يتكلم، ينظر لى بعيون تفيض بالدمع: (ماذا جرى لك يابنىّ).

فى الغد, حملنى أبى على كتفه, وذهب مصحوباً بحشد من الأقارب، ودارَ بى على أطباء دسوق. ثم عاد مهموماً وخائفاً أكثر مما ذهب.

قال محمد, الابن الأكبر لعمى الشيخ محمد:

– سيبك من العكّ اللى هنا ده يابهىّ، الواد هايروح من إدينا. بكرة نسافر كلنا على مصر, ونودّيه لأحسن دكاترة.

وسافرنا. نزلنا ضيوفاً على بيتهم فى الحلمية. فتح محمد وعادل وعلى الدليل, وأخذوا يتشاورون ويكتبون أرقام التليفونات, ويستفسرون من معارفهم. وبعد قليل من الحيرة: أى التخصصات أولى بالذهاب أولا: (الأطفال.. العظام.. الأعصاب)

انتهوا إلى أننى يجب أن أذهب أولا إلى طبيب أطفال، ونتركه هو يحدد الطريق الذى نسير فيه.

وطبعاً لم يكن فى مصر كلها, طبيب أطفال أكبر من د. مصطفى الديوانى، فقرروا الذهاب إليه فى المساء، وتمّ الاتصال لحجز موعد لى.

كان د. مصطفى جَدّاً عجوزاً قد تخطّى الثمانين.

على جدران غرفة الكشف, شهاداتٌ وأوسمةٌ موقعةٌ من الملك فؤاد, والملك فاروق, والرئيس عبد الناصر. عندما رآنى على كتف أبى, نظر لى بحنان، كما لو كان يرى طفلاً مريضاً للمرة الأولى.

فحصنى جيداً، وشكْشكَ قدمىّ وساقىّ بالدبابيس, وضرب ركبتىّ بشاكوش من الكاوتشوك عدة ضربات. لم تكن استجاباتى مطمئنة. بعدما فرغ من فحصى سألنى:

– إسمك إيه يا بطل؟

– أسامة.

– فى سنة كام يا أسامة؟

– فى تانية إعدادى.

– عظيم. عظيم.

سأله أبى:

– خير يا دكتور؟

– خير إنشاء اللّه.

الحقيقة هوّا عنده التهاب فى الأعصاب, والسبب: فيروس اتنقل له عن طريق اللوز, وكويس قوى انكو جيتو بدرى.

ولكن زيادة فى التأكد, هابعتكو للدكتور عماد فضلى, هنا فى عمارة اللوا جنبنا. ده كان تلميذى, وكان بييجى يتعالج عندى وهوا طفل. الحقوه دلوقتى, وخلّوه بعد ما يشوفه يكلمنى. أنا موجود فى العيادة.

(أ. د. محمد عماد الدين فضلى. أستاذ ورئيس قسم الأمراض النفسية والعصبية بجامعة عين شمس)

قابلنا التو مرجى متجهّما :

– للأسف الدكتور مايقدرش يستقبل حد تانى النهاردة, ممكن تاخدو ميعاد وتيجو بكره.

تركنى أبى جالساً, وذهب بسرعة إلى الدكتور مصطفى، ثم عاد بعد قليل. عندما خرج المريض من غرفة الكشف, أشار لنا التومرجى وهو يبتسم بالدخول, متخطياً بعض المرضى الجالسين.

فحصنى الدكتور عماد بنفس الطريقة. وقرأ تشخيص د. مصطفى ثم قال لأبى.

– تمام.. أنا متفق تماماً مع رأى د. مصطفى.

ولكن زيادة فى التأكد, هانعمل التحليل ده. وأعطى أبى خطاباً إلى المعمل.

عدنا ثانية للدكتور مصطفى. كانت العيادة فارغة. فقط الدكتور فى غرفته، والتومرجى العجوز فى الصالة.

استقبلنا كما لو كان فى انتظارنا.

لماذا ذهبنا إليه ثانية؟

أتصور أن أبى لم يكن هو نفسه يعرف إجابة لهذا السؤال. هل الطمأنينة والأمان اللتان أحسسْتُها عندما وضع د . مصطفى يده علىّ, أحسّ بهما أبى أيضاً.

يده السمينة، البيضاء، ذات الأصابع القصيرة؟

أمْ أنه قرأ فى عينىْ أبى صرخته الدامعة:

(انقذ إبنى أبوس إديك)؟

أذكر أننى سألت أبى بعد ذلك, إن كان الدكتور مصطفى يعامل كل الأطفال بنفس الطريقة؟

لكننى كنت ومازلت مؤمناً, أنه حتى ولو كان حنوناً مع كل الأطفال، فلقد كان حنانه معى زائداً درجة.

درجة، ملأتنى وقتها، ولسنوات طويلة بعدها، بالزهو والسعادة.

فى المعمل عرّوا ظهرى، وعقّموا الجزء الأسفل من العمود الفقرى، ثم غرزوا إبرةً هائلةً فى إحدى الفقرات، وسحبوا كميةً كبيرةً من النخاع, لإجراء التحليل.

(ظللتُ لشهر كامل نائماً على ظهرى, أصرخ من الألم إذا تحركت أدنى حركة)

بعد أيام, عاد أبى للدكتور عماد بالنتيجة.

– عال عال زى ماتوقعنا بالظبط. الحمد للّه, الأمر تحت السيطرة لسه، وبالعلاج, هايبقى زى الحصان فى ظرف شهرين, لو كنتو اتأخّرتو شوية, كان الموضوع خرج من إدينا. حظّكو حلو.

لم ينس د. عماد أن يقول:

– على فكرة, لازم تعرفوا إن المرض ده فى العادة بيسيب أثر فى المثانة و القولون. عموماً خلّينا نمشى ع العلاج وأشوفه بعد شهر.

(بروستجمين)

لن أنسى اسم هذا الدواء أبداً. حبوب صغيرة فى علبة بيضاء أسطوانية الشكل. ظللتُ آخذها بانتظام, حتى بعد أن شفيت, وعدت للعب مع أقرانى، ولسنوات عديدة بعد ذلك.

أحببتُ د. مصطفى الديوانى كما لم أحبّ أحداً من قبل, وأنزلتُه فى نفسى منزلةً مقدسة. وبسببه, أحببتُ أطباءَ عديدين فى رحلتى الطويلة مع المرض.

لم يكن يعلو مكانته فى نفس الطفل الذى كنتُه آنذاك, سوى شخص واحد فقط, اسمه: (جمال عبد الناصر).

العملية

السبت ٢٤/٦

٢ صباحا

(أمى: لا تهدرى الوقتَ فى الدعاء لى بالشفاء.
ادعى لى فقط.. بألاّ تتوقف عمليّتى)

العملية هى روح الغسيل. هى الهواء الذى يتنفسه. إذا توقفتْ, توقف الغسيل بالضرورة. لكنهم يحتالون على ذلك, بإعاشته على التنفس الصناعى. فيركّبون للمريض قساطرَ فى الصدر, أو الرقبة, أو الفخذ. القساطر لا تدوم. ويجب ألاّ تدوم. ففى النهاية، لابد أن يعود الغسيل إلى الهواء الطلق.. إلى العملية.

عمليتى الأولى استمرت ثمانى سنوات ونصف. عبَرْتُ بها وحدة الاستقامة، ومركز فيصل. ورافقتنى ثمانى سنوات كاملة فى الهدى، إلى أن وصلتُ بها سالمةً إلى وحدة الزمالك. لكنها أخيراً كفّتْ عن الحياة – مثل كل حىّ – وتوقفتْ.

كنا يومها فى الإسكندرية, ذهبنا فى الصباح أنا وسهير, ومرتجى وعيشة, إلى العجمى. نزلتُ أنا ومرتجى لنسبح.

سبحَ مرتجى، وبلبطْتُ أنا، ثم عدنا فى المساء.

فى الفجر, ونحن نائميْن عند أمى فى شوتس، صحوت فجأة إثر إحساسى بوخزة صغيرة. وضعتُ ذراعى

على أذنى اليسرى. كانت هامدةً تماماً. لم أسمع الصوت الأليف المعتاد (جوْ، جوْ، جوْ). تحسّستُها بأصابعى، كان الوريد متليفاً ومبروماً كالحبل.

لقد تجلّط الدم إذن, وانسدّت العملية.

كانت العملية فى نهاية ذراعى الأيمن, بالقرب من يدى. وكانت تنتهى بانتفاخ فى الوريد, يظل ينبض كقلب صغير. أحَبّها الأطفال جميعاً. إذ كانت صالحةً تماماً, كلعبة حية لا مثيل لها. يلمس الطفل البالونة الصغيرة، فتلمع عيناه، فأبادر أنا بوضعها على أذنه، فيسمع الصوت القوى الذى يشبه صوت (مكنة الطحين). وعندما يسأل, أخبره أن هناك جهازاً كهربائياً صغيراً مزروعاً هنا.

(أنا نفسى كنت أتصور ذلك فى البداية)

إلى أن فهمت أن العملية هى عبارة عن جسر، أو وصْلة، بين شريان ووريد. الأوردة على السطح, بالقرب من الجلد. أما الشرايين, فتختفى فى أماكن أعمق.

يفتح الجرّاح الذراع، ويبحث عن الشريان حتى يجده، ثم يبرزه على السطح, ويفتح به فتحة, يقوم بخياطتها فى فتحة أخرى فى الوريد، فيصير الوريد شريانآ، أو ذيل شريان، يتدفق فيه الدم قوياً, آتياً من القلب مباشرةً.

لقد رأيتُ بعينىّ العملية الثانية, خطوةً خطوة: حقنة البنج الموضعى, المشرط, وهو يشق ذراعى الأيسر بالقرب من يدى.

ثم لغوصة الدكتور فى أحشاء ذراعى، وإخراجه الشريان معلّقا فى سبّابته.

كان عبارةَ عن أنبوبة بيضاء, مدرّعة بحلقات, تشبه الأكورديون. ذكّرتنى بعضو ذكر البطّ، الذى رأيته وأنا طفل، يتدلّى منه أبيضَ ورخواً، إثر قيامه من فوق إحدى جواريه, على سطح بيتنا.

أمسكَه بمشبكين معدنيين قبل أن يفتح بينهما فتحة صغيرة. وقبل أن يخيطها فى فتحة الوريد, انتبه إلىّ, فأسدل الممرض على الفور ملاءةً, حالتْ بينى وبين ما يفعل.

توقفتْ تلك العملية بعد إجرائها بأسبوعين. وقبل أن تكون جاهزة للاستخدام.

نصحتْنى داليا بالذهاب للدكتور خالد الهنداوى, الذى أجرى عمليةً ناجحةً لرفاعى, مازالت تعمل منذ سنوات.

أجرى لى د. خالد عملية جديدة فى ذارعى الأيسر، على بعد كاف من العملية السابقة، غسلتُ منها لشهرين، ثم توقفتْ. فانتقل إلى الذراع الأيمن، وأجرى واحدة فى منتصف الذراع تماماً، عند المفصل، غسلتُ منها ستة أشهر، ثم توقفتْ أيضاً، بعد أن تسبّبتْ فى تورّم ذراعى بشكل مخيف.

وأخيراً أجرى لى واحدةً فى أعلى ذراعى الأيسر, بالقرب من إبطى (زرع وريد). يعنى أنه بحث عن وريد قوى فى العمق وأعاد ذرعه على السطح, وأوصلَه بالشريان.

مازالت العملية الأخيرة صالحةً إلى الآن, منذ ما يقرب من عامين. أتمنى ألا تتوقف هذه العملية أبداً. وإن كان

ولابدّ لها أن تتوقف فى النهاية، فلتعشْ معى إذن أطول فترة ممكنة.

لقد استُنْفدتْ كل الأماكن الصالحة فى ذراعىّ. ولم يتبق سوى حلٍ وحيد، وهو ذرع وريد صناعى فى فخذى.

"عندما كانت تتوقف العملية، أذكر أننى كنت أسرع فى نفس اليوم, أو فى الصباح التالى على الأكثر, إلى مستشفى صيدناوى، وأتوجه مباشرة إلى غرفة العمليات فى الدور الثالث، للقاء د. جمال روفائيل طبيب التخدير. لم يكن يحتاج لأى شرح، بمجرد رؤيتى, يدخلنى مباشرة إلى غرفة العمليات الصغرى، ثم يشرع فى تركيب القسطرة.

(قسطرة نائمة فى الوريد، تنتهى بمدخل ومخرج صغيرين، يتم التركيب منهما, والغسيل, لمدة شهرين, حتى تلتئم العملية الجديدة, وتصبح جاهزة للاستخدام)

فى آخر مرة, حاول د. جمال تركيب القسطرة فى الصدر، فى الجهة اليمنى أولاً، ثم فى اليسرى، وأخيراً حاول فى الرقبة، الجهة اليمنى أولاً: لم يستطع السلك المرور من الأوردة الثلاثة.

كانت الأوردة مسدودةً تماماً, بسبب الجلطات التى تكونتْ من جراء تركيب القساطر فى المرات السابقة.

عندما استطاع السلك المرور من الوريد الرابع فى الجانب الأيسر من رقبتى, تنفس د. جمال الصعداء وقال:

– أفّ .. أخيراً لقينا عندك وريد سالك.

إنت لازم تعمل أشعة دوبلكس على الرقبة والصدر, عشان نشوف إيه الحكاية ".

لن أذهب إلى الدكتور جمال بعد ذلك. ولن أركّب أىّ قسطرة فى رقبتى.

فعمليّتى الحبيبة، التى أحتضنها بحنان تحت إبطى، والتى أطمئن عليها فى اليوم مائة مرة... ستظل حية. وستظل ترفسنى برفق. كجنين فى شهره السادس.

سأواظب على التربيت عليها بالكمادات الدافئة. وعلى دهنها بالهيموكلار.

حتى يظلّ وريدها غضاً, ومكتظّاً بالدم والحياة.

عن الشعر والنثر

الجمعة ٣٠/٦

٩ مساء

انتهت الآن مباراة ألمانيا والأرجنتين فى دور الثمانية. فازت ألمانيا بركلات الترجيح. لم تكنْ مباراة جميلة على كل حال. بعد ساعة, ستبدأ مباراة إيطاليا وأوكرانيا فى نفس الدور.

أنا متوتّر, ودائم السرحان, وأشعر برغبة قوية فى الكتابة.

ولذلك, لست متحمساً لرؤية المباراة، خصوصاً إن استطعتُ الاندماج فيما سأكتبه الآن.

لكننى حائرٌ, ولست على يقين من أن هناك موضوعاً محدداً يشغلنى, ويستدرجنى لكتابته. ليس لندرة المواضيع, أو لفراغ الرأس منها، بل على العكس تماماً.

أنا فى حالة كتابة دائمة منذ فترة.

عندما أكون فى هذه الحالة, يكون كل ما أراه, أو أسمعه, أو أعيشه, من شخصيات وأحداث, صالحاً للكتابة.

لقد غازلتنى عشرات المواضيع فى الساعات الماضية, بل بذلت نفسَها لى, وقالت: اكتبْنى.

ولأننى محترفٌ قديم لفنّ الهرب من الكتابة, فلقد راوغت، وتملصت، وتعاميتُ طوال الساعات الماضية، إلى أن وجدتُنى الآن وحيداً فى البيت، ليس بى رغبةٌ فى النزول، ولست متحمساً لرؤية المباراة القادمة.

وإذْ بالمواضيع التى راودتنى بالأمس, تهجم علىّ الآن, وتطنّ فى رأسى, كجيش من الدبابير.

يجب أن أفرّق أولاً بين حالات الكتابة التى تأتينى الآن، وتلك التى كانت تأتينى أيام كنت أكتب الشعر.

لقد ظللتُ طوال عمرى, ومازلت, أعدّ نفسى, ويعدنى آخرون, شاعراً.

الشعر والنثر وطنان، مختلفان، ومتمايزان. كلّ له ناسه، ولغته، وطقسه، وأشجاره، وثماره.

كنت أسكن أرض الشعر, وأعتبر نفسى مواطناً من الدرجة الأولى.

ولأن أرضَ الشعر أرضٌ فوق واقعية، فهى ليست هى بالضبط فى عين كل قاطنيها. فالبعض يراها واحةً خصبة، وأرضاً مثمرة، وأشجاراً خضراء طوال العام. والبعض الآخر يراها جرداء وعرة. يظل يسير فيها فراسخَ وأميالاً، عابراً السراب تلو السراب، حتى يظفر فى النهاية بشجرة وحيدة، تتدلّى منها ثمرةٌ واحدة، يتفيأ ظلّها قليلاً، ثم يعاود السير، بعد أن يبتلّ ريقه بالعصير الحلو، وتهدأ معدتُه.

كلا البعضيْن يشفق على الآخر.

فالأول من فرط إشفاقه على الثانى لا يراه. أما الثانى, فإنه يرى الأول جيداً، ويعرف كم هو بائس. ويعرف أيضاً

أن ما يكنزه من ثمار. ما هى إلا (زَنْزَلخْت) لا يصلح لشىء.

أما أرض النثر: فهى كالغابة المتشابكة الأغصان، كل أشجارها مثمرة, وقريبة المنال. لكن الثمار المرجوّة دائماً خفية. إذ لا يراها سوى قاطنيها. لا.. ليس كل قاطنيها. بل ذلك الذى يمكنه أن يكون حطّاباً، وطالعَ نخل، وصياداً، ومستكشفاً، وقصاصَ أثرٍ، فى شخص واحد. حتى تمكّنه الغابة من ثمارها العزيزة.

لقد غزوتُ أرض النثر مرات معدودات من قبل. فى كل مرة كنت أتسلّل على وجل واستحياء، وأعود سريعاً, بعد أن أختلسَ ثمرة صغيرة.

الآن، بعد أن تجرأتُ وتوغلتُ قليلاً, أوشك أن أقول:

(بائسٌ هو الشاعر الذى لم يعرف النثر أبداً)

أعود إلى حالات الكتابة، وأتذكر أنى كنت أعيش أسابيعَ, بل شهوراً, وأحيان سنوات، متروكاً, مثل نبىّ هجره الوحى. أعبرُ على الأشياء, فأراها كما هى أشياء.

إلى أن تضربنى الصاعقة، أو تحتضننى, مُطبقةً علىّ جناحيها. فأتفصّد عرقاً، وأرتجف. أنظر للأشياء, ولا أراها. وأظل عليلاً إلى أن تنتهى منّى.

ثم أفيق من سكرتى, فلا أجد صواعق ولا أجنحة. أنا فقط, وحولى الأشياء كما كانت, وفى يدى قصيدة.

أما الآن, فأنا أعيش مالم أعشْه من قبل. حالة الكتابة مستمرة معى منذ أكثر من شهرين. الحياة بكل مفرداتها مادة متاحة للكتابة دائماً.

(الحياة نثر), وما على الكاتب سوى أن ينقلها من واقعها إلى الورق.

ولكن السرّ كله يكمن فى عملية النقل هذه:

كيف ترى نثرَ الحياة, ومن أية زاوية, وأى المفردات يسترعى انتباهك أكثر من الآخر؟

ثم الغلالة الرقيقة, التى تغلّف المشهد الذى وقع اختيارك عليه.

تلك الغلالة التى هى روح الكاتب, ومزاجه الخاص. والتى تحوّل تلك المشاهد إلى نصوص.

المشاهد الغافلة, التى تسبح فى ديمومة الوجود. والتى تنزلق عليها الأعين دون أن توليها أى قدر من الاهتمام.

إلى أن تأتى عين الكاتب، فتضعها بين قوسين، ثم تنقلها بحرص إلى الورق، لتبدأ حياةً جديدةً لا تنتهى.

حائط مبكاى

الخميس ٦/٧

ا صباحا

(سهير حائط مبكاى).

قلت هذه الجملة لحمدى, عندما كان فى زيارتى منذ يومين. أتى ومعه أربع سجائر حشيش. كان الحشيش جيداً. جعل مزاجنا (عنباً).

كنت أحكى له عن شكاواى التى لا تنقطع إلى سهير, طوال ١٩ سنة, هى عمر زواجنا. وكيف أنها كانت تهتم فى البداية. وبمرور السنوات, أخذ اهتمامها يفتر قليلاً. بينما شكاواى تزداد. حتى وصلتْ هى إلى اللامبالاة التامة. وقلت له أيضا:

– واللّه عندها حق. كتّر خيرها اللى استحملتْ لحدّ دلوقتى. أنا لو مكانها, كان زمانى هجّيت من البيت من زمان.

كنت أحكى وحمدى يضحك.

ضحك حتى احمرّ وجهه. ثم ضحك حتى دمعتْ عيناه.

أنا بنى آدم شكاء. يجب أن أعترف بذلك.

أشعر براحة حقيقية بمجرد نطقى بالشكوى:

– سهير.. شوفينى سخن كده.

تضع يدها على جبهتى:

– أبداً واللهى، دى حتى قورتك أبرد من إيدى.

– سهير.. وشّى مورّم قوى؟

– لا أبداً، وشك عادى جداً.

– إنتى فاكرة إنك كده بتريّحينى؟ مانا شايفه قدامى فى المراية أهه.

– حاجة بسيطة يا أسامة, مش باين واللهى.

– سهير.. معدتى.. يا ساتر.. نار.

– انت عارف السبب.

– إيه هوا بقى إنشاء اللّه؟

– بتاكل بسرعة، ومابتمضغشى الأكل، والتدخين، والشاى، والميّة الساقعة. يا شيخ هوّا فيه حد معدته تعبانة, ويعمل اللى انتَ بتعمله؟

– سهير.. سدرى مقفول، وعندى احتقان فى زورى، والجيوب الأنفية مسدودة تماماً.

– أنا مش هاتكلم. وأرجوك ماتشتكيش من سدرك تانى. طالما انتَ مُصرّ لسه ع التدخين. دى الناس العادية بتبطل خوفاً على صحتها. تقوم انت تعمل فى نفسك كده؟.. انت ناقص؟

قالت لى أيضا:

– أنا مش هاقولك تانى بطّل الحشيش. إنت حرّ. بس كمان أنا من حقى أنام زى بقيت الناس. الليلة اللى بتدخن فيها حشيش, ماباشوفش النوم. صوت الشخير الفظيع من ناحية، ومن ناحية حركتك اللى زايدة عن اللزوم.

وقفتُ أمامها مرةً عارياً تماماً وقلت:

– أتحدّاكى لو لقيتى عندى عضو سليم من ساسى لراسى. بالرغم من إنى ماعرفش إيه هو الساس بالظبط، لكن أنا متأكد أنه تعبان هوّا كمان.

وكنت أعقّب قائلاً:

– ربنا خدْ منّى كل حاجة، .. وادّانى الصحة.

وأحياناً كنت أصحح لها:

–الحقيقة هوّا خد منى كل حاجة، .. ومادّانيش أى حاجة.

كانت تنزعج فى البداية وتردّ:

– حرام عليك .. هوّا ربنا مادّاكش أى حاجة برضه؟

احمد ربنا يا أسامة, إنت أحسن من غيرك.

لكنها كانت تنهى كلامها وهى تبتسم.

أمى حكت لى

السبت ٨/٧

٤ عصرا

ذهبتُ إلى العزبة يوم الأحد الماضى, للتوقيع على الأوراق الخاصة ببيع قطعة أرض من ميراثى. كانت أمى بانتظارى هناك, وكذلك عمى عبد الستار وزوجته. اقترحتْ أمى أن أذهب معهم إلى الإسكندرية, فى سيارة عمى، هرباً من الناموس. ولرؤية إيناس, وتمضية الليل معهم. وسيكون بإمكانى السفر مبكراً إلى القاهرة, واللحاق بموعد الغسيل. كنت قد أتيت بحقيبة بها خمس فانلات داخلية، وأربع بيجامات (قلت لنفسى آخذ عُدّتى من باب الاحتياط، تحسباً لمواجهة العرق، إذا اضطُررْتُ للبيات).

كان معى أيضا كرةَ لأسامة، وساعةَ لريم، انتقتْهما سهير هديةَ لنجاحهما. فرحا بهما كثيراً.

وسافرنا: أنا, وأمى , وريم ابنة علاء ، فى صحبة عمّى وزوجته.

كانت إيناس فى انتظارنا. تعشينا, وسهرنا حتى الثالثة صباحاً. كان اليوم الذى بدأ لتوّه, هو يوم الاثنين ٣/٧ (عيد ميلادى). احتفلنا باتمامى السادسة والأربعين.

حكيتُ لهم عن الكتاب الذى أكتبه الآن، وعن سعادتى بالكتابة، ودورها الأكيد فى تحسّن صحّتى,

وحالتى النفسية، وفى القيام من الكبوة الصحية التى مررتُ بها مؤخراً. قلت لهم أيضاً: إننى أكتب عن حياتى، وعلاقتها بالمرض. وكيف أننى اكتشفتُ أن المرض يشبه الخيط الذى يلضم حياتى كلها، منذ مولدى وحتى الآن.

ثم قرأتُ لهم الفصل الخاص بالعملية.

طلبتُ من أمى أن تتذكر معى البدايات الأولى لمرضى.

قالت:

كانَ عمرك ١٥ يوماً عندما أخذتَ تبكى بكاءاً متصلاً. ولم نكن نعرف السبب. كنت تبكى وتصرخ حتى يزرقّ وجهك، وفجأة تكفّ عن البكاء, مع انسياب البول منك.

ذهبنا بك إلى الدكتور مجدى عبد العال (رغم أنه متخصص فى الروماتيزم والعلاج الطبيعى, إلا أنه بالنسبة لعائلتنا, كان الطبيب الجوكر, الذى يفتى فى كل الأمراض.

والسبب فى ذلك، ثقة جدّى المفرطة فى كفاءته، واعتزازه بالصداقة الوطيدة التى تربط بينهما)

فحصنى الدكتور مجدى, واكتشف أن عضوى الصغير, ينتهى بغلافتين اثنتين, مما يعيق انسياب البول بسهولة, ويسبب ما يشبه الاحتباس. ونصح بختانى سريعاً.

وتم ختانى فى نفس اليوم.

قالت أمى أيضا: إنه أخبرهم أننى (عندى رمل ع الكلى). هكذا بمجرد النظر، وبدون أشعة ولا تحاليل,

وفى هذه السن المبكرة. وأوصى بعشْرة أعشاب, تُغلى معاً, وتوضع لى فى البزازة.

وقالت: لقد اعتدتَ على البزازة سريعاً, وامتنعتَ تماماً عن الرضاعة من صدرى، لأنه لم يكن يدرّ اللبن بنفس غزارة البزازة بالطبع. حتى تحجّر اللبن فى صدرى، ثم أخذ صدرى يتورّم, ويزرقّ لونه. نصحونى بالذهاب إلى البحر, والجلوس فى الماء, والسماح لموجة قادمة بتغطية الصدر, حتى تغسلَه من أثر العين الحاسدة.

ذهبنا إلى النيل فى الفجر, أنا وأبوك وعمتك فايزة. كنا فى شهر طوبة، وكان بحوزتنا كل الملابس الصوفية التى تخص جدّك وأباك لتطويبها (نسبة إلى شهر طوبة). أى تغطيسها فى ماء النيل, حتى تعيش طويلاً ولا تأكلها العتّة.

ولم تمض عدة أيام حتى شفيتُ تماماً, وراح الورمُ, واختفتْ الزرقة.

قالت أيضا: إنها إلى الآن مازالت تعتقد أن سبب إصابتى بالشلل, هو أن أبى قد ضربنى على عتبة الدار, وأننى وقعتُ على تلك العتبة, وبكيتُ كثيراً. وهى تشاءمتْ, وتوجستْ شراً. وبالفعل لم تمض أيام، حتى وقعتُ وأنا ألعب بالشارع, ولم أعد قادراً على الوقوف على قدمىّ.

قالت أيضا: إننى استجبتُ للعلاج سريعاً, وعدت للمشى, واللعب بعد شهر ونصف.

ولكننى بدأت أعانى من الإمساك الشديد، واحتباس البول, كما تنبأ د. عماد فضلى بالضبط.

قالت: إنها كانت تتعذب وهى ترانى أصرخ ألماً كلما حاولتُ التبول, وكيف كان يزرق وجهى, وأنا أحزق بكل قوتى حتى يندفق البول المحبوس.

أخذنى أبى إلى مستشفى الشاطبى للأطفال بالإسكندرية، وتمّ حجزى فى نفس اليوم. تركنى أبى وحيداً, بعد أن أوصى سيدة توسّم فيها الطيبة, كانت تجلس بابنتها (سامية... مازالت أذكرها جيداً).

وفى اليوم التالى أتى بأمّى لتجلس بى.

أذكر أننى وقت التبول كنتُ أجلس فى وسط العنبر، أصرخ بأعلى صوتى، ضاغطاً بيدىّ على مثانتى، والألم يكاد يفتك بكليتىّ, بسبب ارتجاع البول المحتبس إليهما.

كانت أمى تأتى بشال، وتحزمنى به، وتشدّ هى وامرأة أخرى، كل من طرف، وأنا اضغط بأصابعى على المثانة، حتى يندفق البول أخيراً وأستريح.

أذكر أيضا أننى فى إحدى هذه النوبات، وكنت أصرخ ألماً كالعادة، ومن حولى أمى وبقية النسوة, وكان وجهى ناحية باب العنبر. وإذا بجدّى يسدّ الباب بطوله الفارع، وجلبابه الصوفىّ الأنيق، وعباءته الجوخ، وعمامته الطويلة شاهقة البياض.

بمجرد رؤيته انطلق البول منى بغزارة, مالئاً البغبغان، وانفثأ فى الحال كل ألمى وتوترى وانفعالى، وهدأتُ تماماً، إلى أن نمتُ فى أحضانه.

انتقل هذا السر من جَدّى إلى خالتى آمنة. كانت هى اليد الرحيمة التى تنزلق برفق على رأسى, وسط

تمتماتها الخافتة, ثم تصنع العروسة الورقية، وتأخذ فى تخريمها بالإبرة: من عين فوزية (أمى), وعين آمنة, وعين أم السعد, ولواحظ, ونديرة, وكل الجارات. ثم تحرق العروسة وهى تتثاءب.

كانت تقوم بطقوسها, بينما ينساب البول منى، وأهدأ, رويداً رويداً، إلى أن أروح فى النوم.

كان بيت أخوالى بجوار بيتنا. كلما عاودتنى نوبة الاحتباس يسرع أحد الموجودين للإتيان بها. كانت تقفز من نومها فى أى وقت، حتى ولو كان قبيل الفجر، ثم تعود لتكملَ نومها بعد أن أهدأ أنا وأنام.

لم يكن احتباس البول دائماً. كان يأتى ويروح على هيئة نوبات. كل مرة كان يستمر عدة أيام.

تم تشخيص حالتى بأنها: مثانة عصبية (شبه مجنونة) إذ على الرغم من حبسها للبول، وعدم قدرته على اقتحام الصمام الخارجى فى مجرى البول، إلا أنها, هى نفسها, كانت ترتخى تماماً, وينفرج الصمام من تلقاء ذاته, أثناء نومى.

وهكذا,.. أمضيتُ صباى وصدر شبابى:

احتباس بول بالنهار,

وتبول لا إرادى بالليل.

تبوّل لاإرادى

السبت ٨/٧

١١.٤٥ مساء

حكيتُ لهم (أمى, ونوسة, وريم) عن التبول اللاإرادى.

سرّىَ المنيع, الذى برعتُ فى إخفائه, والذى ظلّ مجهولاً تماماً خارج نطاق الأسرة. والذى عبر معى مرحلة الإعدادية، والثانوية، والجامعة، قبل أن يُجرى لى الدكتور ممدوح قريطم عملية بالمنظار، عبارة عن قطْع جزئى فى الصمام الخارجى لمجرى البول، لكى يخفّف من قبضته الصماء قليلاً.

كان خائفاً, وهو الجراح الكبير، أن تأتى نتيجة العملية على غير رغبتنا. وأذكر أنه جلس معى وشرح لى الأمر قائلا :

الصمام عبارة عن حلقة من الألياف العصبية بالغة الدقة. وهناك احتمال أن يكون القطع أكبر مما يجب، فيضيع منا الصمام تماماً. وبالتالى يحدث سَلسُ البول الدائم، وهو مالا ترغبه.

قلت له :

– توكّل على اللّه يا دكتور، أنا عَندى ثقة كبيرة فى حضرتك.

كان قطع الصمام تماماً، وإحداث سلس البول الدائم بالتالى، هو الحل الأمثل فى نظر كل أطباء قسم المسالك البولية بمستشفى جامعة الإسكندرية. قالوا لى جميعاً: إنك مهدد بالفشل الكلوى, بسبب نوبات ارتجاع البول للكليتين, اللتين سيتم تدميرهما بمرور الوقت. وكان رأيهم أن حلّ السلس هذا (قضا أخفّ من قضا) وأنه مجرد عيب مظهرى، لكنه سينقذ حياتك.

ولكننى رفضتُ رفضاً قاطعاً. وقلت وقتها: فليأت الفشلُ الكلوى وقتما يأتى، لكنى لن أعيش يوماً واحداً بسلس البول هذا.

وأجرى د. قريطم العملية، ونجحتْ. كنت أتبول فلا يتبقى فى مثانتى إلا القليل جدا من البول (من ٥٠ – ٨٠ سم٣) مقارنة بما كان يحدث قبل العملية. إذ كان البول المتبقى بعد التبول يصل إلى(١٠٠٠ سم٣) يعنى لتر كامل. وهذا ما كان يتسبب فى الارتجاع، والتبول اللاّ إرادى كذلك.

فرحتُ بالعملية لمدة شهر, ثم بدأ الصمام يتيبس جزئياً مرة أخرى, لكنه بالطبع لم يعد كما كان.

ظلّت كمية البول المتبقى ما بين (٢٠٠ – ٣٠٠سم٣). وساعد ذلك فى قدرتى على مقاومة التبول اللا إرادى، وباعد كذلك بين كل نوبتىْ ارتجاع. حتى كفّ الارتجاع هو الآخر عن الحدوث.

حكيتُ لهم كيف كان التبول اللا إرادى رفيقاً فرضه القدر. وجدت نفسى أصادقه رغماً عنى، وألتزمُ تماماً بمبدأه الذى أملاه علىّ : (راعِنى كى أراعيك) .

لقد فرض علىّ طقوساً، لم أتهاون فى فعلها مطلقاً. طقوساً أشبه ما تكون بعبادة سرية، يجب ألاّ يطّلع عليها أحد.

– يجب ألاّ تماطل إذا شعرت برغبة فى التبول. اذهب فوراً إلى أقرب مكان، وحاول أن تفرغ مثانتك. وبعد أن تنتهى، حاول أكثر، واضغط بأصابعك عليها، واحزقْ، حتى تطرح عنك أكبر قدر تستطيعه.

– ادخل دورة المياه قبل الحصة، وقبل الطابور الصباحى، وقبل السينما، وقبل السفر، وقبل المحاضرة، وقبل الندوة، وقبل زيارة الغرباء. ثم أخيراً قبل النوم. بل قم أثناء النوم قدر ما تستطيع من المرات، واذهبْ إلى دورة المياه.

– تعلّم ألاّ تنام باستغراق. اجعل نومك خفيفاً. بل إياك أن تنام أثناء سفرك فى قطار أو سيارة أجرة. ولا تنمْ عند غرباء مطلقاً، دون أن تحتاط لنفسك.

– إن لم تلتزم بذلك, فأنت المسؤول. سيكون أمام مثانتك المكتظة حلاّن لا ثالث لهما: إما أن تضغط على الحالبين فيرتجع البول إلى كليتيك, وهو الحل الأسوأ. أو أن يقتحم البول الصمام, ويغرق لك البنطلون.

اعتدتُ أن أنام كل ليلة بعد أن أفرش المشمّع تحتى. تلك المشمّعات التى كانت تصنعها أمى من أكياس السماد البلاستيكية، بعد أن تغطيها بقطعة من القماش وتخيطها من الأطراف.

اعتدتُ أيضا أن أرتدى كيلوتّيْن سميكيْن تحت البنطلون, قبل خروجى من البيت.

لكنى، وعلى الرغم من كل الاحتياطات السابقة, كثيراً ماكنت أفاجأ ببقعة صغيرة على بنطلونى. إنها القطرات الصغيرة التى تظل تنزّ حتى يتشبع الكيلوت, ثم يرشح أخيراً على البنطلون.

تعلمت ألا أوليها أى اهتمام. كنت أكمل يومى, مدركاً أن الهواء والشمس سيتكفلان بتجفيفها.

حكيتُ لهم عن أصعب المواقف التى واجهتنى.

(لم أتذكر سوى موقفين اثنين) :

الأول: كنت فى الصف الثالث الإعدادى. بدأتْ حصة اللغة الإنجليزية التى تسبق الفسحة مباشرةً. تكاسلتُ عن الذهاب للحمام قبلها. دخلتْ أبلة (روزا) القاسية، التى تضرب بالشلّوت.

فى منتصف الحصة, طلبتُ منها أن تسمح لى بالذهاب للحمام، رفضت باستخفاف. ظللتُ أقاوم لدقائق أخرى, ثم انهارت سدودى, واندفق البول منّى.

عندما انتهت الحصة, اندفع الأولاد إلى الخارج, وبقيتُ أنا. بعد دقائق, ذهبت لدورة المياه, وأفرغت مثانتى, ثم نزلتُ إلى الحوش. أشار أحد الزملاء إلى القرص المبتل خلفى. قلت لهم:

– اتزحلقْت ووقعْت فى دورة الميّه. الحمدللّه .. جتْ سليمة.

الموقف الثانى:

كنت فى الصف الأول الثانوى. مدرسة جمال عبد الناصر الثانوية العسكرية.

كانت المدرسة تشبه الثكنة، لها قائد برتبة مقدم. وعدد من الضباط الأصغر رتبة، والصولات، والعساكر. مادة التربية العسكرية كانت أهم من الكيمياء, والفيزياء, وبقية المواد. الظبط والربط كانا هما عنوان كل شىء. وكأنّ الحرب ستقوم غداً.

– إحنا هنا عشان نعلّمكم إزاى تكونوا رجّالة.

هكذا كان يصرخ القائد, والضابط، والصول، والعسكرى.

يجب أن يلتزم الطالب بالرداء العسكرىّ الرمادىّ الكالح, البيادة اللامعة، التُزْلُك (تلك القطعة البيضاء من القماش السميك, والتى تحزّم رجل البنطلون من الأسفل)، القايش، وأخيراً الطاقية.

فى أحد الأيام, كنت ناسياً هذا التزلك اللعين، والذى لم يدرك وعيي وقتها، ولا الآن، سبب تلك الأهمية القصوى التى كانوا يولونها له.

(ركنت على جنب) مع بقية المهمِلين والمتأخرين عن الطابور. صنعنا طابوراً أصغر قليلاً من طابور الصباح. ظلّلْنا متروكين حتى انتهت الحصة الأولى، ثم أتى القائد بجلالة قدره, وألقى فينا خطبة هجائية، انتقى فيها أقزع عبارات التوبيخ والإهانة، ثم صرخ فينا: (إنتباه) .. وانشغل عنّا.

ظللنا (إنتباه) فترةً طويلة. وأنا طبعاً مكانى ليس هنا. مكانى الآن بالضبط فى دورة المياه. رفعتُ يدى لكى يأذن لى بالذهاب، لكنه نهرنى صارخاً: (انتباه)، فانتبهتُ إلى البول وهو ينساب على ساقى, مبللاً

البنطلون. ثم أخيراً فرغ لنا آمرآ العساكر بتكديرنا، أى إعطائنا طابور الذنب المقرّر.

انهمكْتُ فى أداء طابور الذنب، ثم صعدتُ أخيرا إلى فصلى, ولم يلحظ أحد (أو بالأحرى: أقنعتُ نفسى بأن أحداً لم يلحظْ شيئاً).

رغم أنى كنت أحمل فى جيبى شهادة مرضية، تبيح لى عدم حضور الطوابير، ولا حصص التربية العسكرية والبدنية، ولكننى لم أخرجها من جيبى أبداً.

حكيت لهم عن الجامعة, والانتقال من بيت أمى، للسكنى وسط آخرين.وكيف كانت هى الامتحان الحقيقى الذى كنت أخشاه.

ولكننى سرعان ما اكتشفت مدى سهولة الحياة, ومرورها بسلاسة يوماً بعد يوم. خصوصاً إذا لم أعقّد الأمور من جانبى.

أرسلنى التنسيق إلى كلية العلوم بالإسماعيلية. كان بصحبتى زميل لى, من بلدة بجوار دسوق اسمها صيفر. كان طيباً طيبةً مفرطة. أوصانى أبوه به قائلا:

– سمير أمانة ف رقبتك ياأسامة. ده غلبان, وأول مرّة يسيب حضن امّه. خليكو مع بعض دايماً يابنى, اللّه يرضى عليك.

– سمير فى عنيّا يا حاج, اطّمّن ع الآخر.

نزلنا فى أحد الفنادق لعدة أيام، تعرفنا على المدينة، ثم ذهبنا مع بقية المغتربين إلى مكان بديل للمدينة الجامعية، التى كانت تحت الإنشاء وقتها، كان فى الماضى (بيت شباب). وهو عبارة عن عدة مبان من

دور واحد، كل مبنىً به عدة عنابر مفتوحة, وتُفضى إلى بعضها. بكل عنبر حوالى ١٢ سريراً، يشبه المستشفى، وله دورة مياه مشتركة.

اخترتُ سريراً بجوار فتحة الباب. كنا نسهر إلى وقت متأخر, ما بين ضحك, وتنكيت, ولعب شطرنج, وحكايات, وغناء:

اضرب بالجّركنْ أومْباشا
لايهمّك صول ولا يوزباشا
واضرب بالجّركن أومباشا
العدس ابُو جبّة....(اللّه)
فى الجيش كالزبدة... (اللّه)
والفول ابوسوسو....(اللّه)
بنوطّى ونبوسو.....(اللّه)
واضربْ بالجركن أومباشا.

كان (سيد) البورسعيدى يصدح كل ليلة بصوته الخشن بهذه الأغنية، هى وأغان أخرى، ونحن جميعاً نمثّل من ورائه جوقةً عظيمة، ونردد خلفه فى صوت واحد: اللّه، فيحدث مايشبه الزلزال.

صادقتُ عدة أشخاص, منهم: محمد قدرى من الإسكندرية، ومنصور من شربين.

عندما يحين وقت النوم، أخرج المشمّع من شنطتى, وأفرشه على السرير. المشمّع الأخضر الجميل، والذى كان فى الأصل مفرشاً للسفرة، له جانب حريرىّ أملسٌ, لا يشرب الماء. وجانب مُشْعر يشبه القطيفة، يلتصق بالملاءة تماماً. قصّتْه أمى لى قائلة:

(مش هاينفعك غير ده, عشان مابيشربش ميّه)

كنتُ أصحو مبكراً عن الجميع بعد أن يصلّى بعضهم الفجر, ويعاودون النوم، وأذهب إلى الحمام.

أستحمّ، وأغيّر ملابسى، وأغسل البنطلون المبتلّ، وأنشره على شباك السرير، ثم أرتدى ملابس الخروج، وأوقظ أصدقائى، وأسبقهم إلى كافيتريا الجامعة.

مرّت الأيام حتى انقضى شهر. ثم انتقلتُ أنا ومحمد قدرى ومنصور, للسكنى فى إحدى الشقق بالإسماعيلية. كانت الشقة العارية من الأثاث, عبارة عن غرفتين وصالة صغيرة. اشتريت سريراً حديدياً (سفرى), ومرتبةً ولوازمها. وأتى منصور بكنبة من البلد. واشترى محمد مرتبةً مكتفياً بها.

أمضيتُ فى هذه الشقة أجمل الأوقات. كانت ملتقى الجميع. كلّ من له علاقة بالشعر أو الكتابة كان يأتى. بالإضافة لأصدقاء محمد ومنصور. وغالباً ما كنت أفاجأ كل ليلة بأفراد أراهم للمرة الأولى.

ودائماً تأتى لحظة يذهب فيها الجميع، ونخلد نحن للنوم. أفرشُ المشمّع الأخضر, وأنام. ثم أصحو مبكراً كعادتى، أدخل الحمام, وأبدل ملابسى، واضعاً الملابس المتّسخة فى الغسالة. غسالة الأطفال الصفراء. غسالتى الجميلة، التى أتى لى بها أبى من السعودية. والتى رافقتنى هى والمشمّع الأخضر، وانتقلا معى إلى الإسكندرية، وتنقّلا معى فى كل الشقق المفروشة التى سكنتُ بها, فى معظم أحياء خط الرمل، من الأزاريطة إلى سيدى جابر.

كنت كل عدة أيام, بعد أن تتراكم عدة أغيرة متسخة, أشغّل الغسالة، وبعد ذلك أنشر ملابسى على الحبال فى الصالة.

ذات يوم, صحا محمد قدرى مبكراً على غير عادته، وأتى ليوقظنى. فكرتُ قليلاً، ولكننى قمتُ متوجهاً إلى الحمام. قفز مكانى ليتمدد على السرير, ففوجئ بالمشمّع:

– إيه ده ياد يخرب عقلك، إنتَ لسه بتعملها على نفسك؟

لم أردّ، بل نظرتُ إليه جاداً، وذهبتُ إلى الحمام مُكملاً طقوسى. عندما عدت, نظرت إليه قليلاً, وانفجرنا فى الضحك.

قال لى:

– يابن الحرام .. بقالنا اصحاب سنة ونص – كانت السنة الثانية لنا فى الشقة – وماعرفش الا دلوقتى بالصدفة؟

لم نعد للكلام فى هذا الموضوع مرة أخرى. لم أضطرّ لذلك. وأعتقد أن منصور, وبقية الناس, لم يعرفوا عن الأمر شيئاً حتى الآن.

كنت أحكى، وكانت أمى تنظر لى صامتة. وإيناس تتطلع لى بفخر. بينما ريم الصغيرة تبكى بلا انقطاع. قلت لهم: إننى مدينٌ لهذه المواقف، بل مدين للتبول اللا إرادى ذاته, بالكثير.

إنه النار الهادئة التى نضجتُ عليها.

قلت لهم أيضا: لقد خرجت من هذه المواقف بحكمة :

"إذا اضطررتَ للسير حافياً فى المدينة، فلا تنظرْ لقدميك كل دقيقة خجلاً. بل ارفعْ رأسك، وانسَ ذلك تماماً.

ولن يلحظَ الجميع شيئاً".

«وقْف حال»

الأربعاء ١٢/٧

٦ مساء

لم أكن أعانى كثيراً من ظهور بقعة البول على بنطلونى. لكننى أذكر جيداً أن معاناتى الحقيقية, كانت بسبب (وقوف حالى).

كان يقفْ دائماً فى الأوقات الخطأ. ناهيك بالطبع عن الأوقات الصَحْ. كان يقوم بلا مقدمات, ولا مبررات, ولا أسباب. أكون جالساً فى الندوة، منهكماً فى الجدال الدامى مع غرمائى، أو متمشّياً مع صديق وقور، صامتين، أو نتبادل وجهات النظر حول إحدى القصائد، أو جالساً على بنش فى إحدى المحاضرات أو السكاشن.

وفجأة, ومن حيث لا أحتسب. حيث تكون كل الأفكار المثيرة, والصور الخليعة, مستلقية على ظهرها.. تأخذ قيلولتها, فى مكان ما بعيداً عنى. وإذا به يقفز متخشّباً, كسهْم أصابَ سكينتى.

كنتُ أسيرُ منكفئاً إلى الأمام قليلاً، بعد أن أرفعَه ليلتصق ببطنى، حابساً إياه تحت أستك الكيلوت، وحزام البنطلون.

تعلمتُ أن أمارسَ من أجله رياضةً روحيةً أشبه باليوجا، بل أشبه بالصلاة. بأن أركّز كل طاقات ذهنى فى

بؤرة محددة، تَنصبّ على جذر العصب الذى يغذّيه, فتشلّه، آمرةً إياه بأن يرتخى, والآن.

كانت تفلحُ هذه الوسيلة أحياناً, وأحياناً يخيب أملى.

هل كنتُ أخجل منه؟ .. أم كنت أزهو به؟ .. وهل هناك شعور يقف بين الخجل والزهو؟ .. أو يجمعهما معاً؟

نعم، أعتقد ذلك. بل بإمكانى القول أننى فى أعماقى كنت ممتلئاً زهواً. بينما فى سلوكى الظاهر كنتُ أبالغ فى كونى خجولاً.

ذهبتُ مرةً مع (ح) إلى المنتزه. عندما فتحتُ لها باب التاكسى لتنزل، انكشف الفستان عن فخذها. بهرنى الضوء المباغت، والذى كاد أن يخطف بصرى.

لم تضعْ هذه الذكرى من رأسى حتى الآن.

أمضينا النهار كله معاً. لم ينمْ لحظة. كانت تكلمنى وأنا منصرفٌ بنصف وعيي, محاولا السيطرة على الوضع. خصوصاً إذا كنّا سائرين، وفى مواجهتنا يأتى عشاق آخرون.

كنتُ أعود من مثل هذه (الطلعات) وأنا على يقين بأنى سأرتمى فى أحضان الألم عدة أيام. كان تجمّع الدم بغزارة لساعات طويلة, يصيب أعضائى باحتقان شديد:

تتورم خصيتاى, وتتحجران، وتظلاّن تنبضان بالألم, الذى يخرج صداه من الحالبين, على جانبى بطنى.

كنت أمشى بصعوبة، أرتدى (رافعاً للخصيتين)، وهو عبارة عن شبكة على هيئة عُشّ تنام فيه الخصيتان، وتنتهى الشبكة بخيطين يتمّ ربطهما حول

جزعى، رافعاً العشّ إلى أعلى, حتى لا يتعرضان لأى لمسة من فخذىّ أثناء السير أو الجلوس.

تكرّرتْ هذه الاحتقانات كثيراً. وفى إحدى المرّات زاد الورمُ والتحجرُ عن المألوف، فذهبتُ إلى الدكتور عبد العزيز صبرى وشرحت له الأمر. قال: إياك أن تعرّض نفسك لمثل هذه المواقف مرة أخرى. وبعد الأشعة قال: يجب إجراء عملية, لإزالة هذه التجمعات الدموية فوراً.

حلفتُ ألاّ أسير مع (ح) أو غيرها فى طريق بعد ذلك.

صرْنا نلتقى فى شقة (بوكلة). كنا نتعرّى تماماً ونظلّ على المرتبة عدة ساعات. هى عذراء. ويجب أن تظل كذلك.

كان نصف وعيها منصرفاً للحفاظ على شرفها. وكان وعيي كله منصرفاً لمحاولة إقناعها بالاسترخاء، وعدم إهدار هذا الوقت الثمين فى الخوف. رغم ذلك كنت أحصّل المتعة مرات. ولكنى لم أكن أقذف أبداً.

شرح لى د. صلاح السلمى المشرف على أبحاث رسم المثانة الخاصة بى الأمرَ قائلاً: (ما يحدث عندك له علاقة أكيدة باللخبطة العصبية التى تجتاح المنطقة.

مشكلتك تتلخص فى الصمام الخارجى لمجرى البول. وهو المتحكم الرئيسى فى خروج البول أو السائل المنوى.

السائل المنوى تدفع به البروستاتا, عبر قناة خاصة, إلى فتحة فى مجرى البول, تقع بين الصمامين (الخارجى، والداخلى). فى الظروف العادية، ينقبض الصمام

الداخلى، وينفتح الخارجى، فيندفع السائل إلى الخارج على هيئة دفقات.

صمامك الخارجى متيبّس، ولن ينفتح من تلقاء ذاته. لابدّ أن تَبذلَ جهداً، يشبه الجهد الذى تبذله عندما تتبول وأنتَ محصور.

إذا لم يحدث ذلك, لن يجد السائل أمامه طريقاً سوى الضغط على الصمام الداخلى الضعيف، والارتماء فى المثانة.

يسمى ذلك. ريتروجريت إيجاكيوليشن.

Retrograte ejaculationأى: قذف ارتجاعى.

أذكر أنه قال أيضاً. عموماً إنت فى نعمة. رجالة كثير يحسدوك عليها.

أذكر أيضاً أننى قلت بتباهٍ لكل من (ح) و(ع) و(ح) الثانية (صاحباتى العذراوات):

– صدّقينى, هاييجى يوم وتندمى. إحنا بقالنا دلوقتى قد إيه مع بعض؟ مالاحظتيش إن طول الوقت ده وهو صاحى؟ أكيد هاتفتكرينى. خصوصاً لما يبقى عندك أرق، وقاعدة على السرير، وجوزك بيشخّر جنبك.

وهاتعرفى ساعتها, قد إيه كنتى عبيطة، وضيّعتى فرصة عمرك.

بمب والحمد للّه

الأحد ١٦/٧

٢.٣٠ ظهرا

أنا الآن فى أحسن حالاتى. صحّتى جيدة. أعرف ذلك من شيئين: شهيّتى للأكل، وقابليّتى للتدخين.

أنا آكلُ جيداً. وأدخّنُ الآن علبةً كاملة. وأحشّشُ يومياً.

لقد تحسّنتْ صحتى عبر الكتابة, يجب أن أقرّ بذلك. هى وليس غيرها، من ساعدنى على الخروج من النفق المظلم الذى كنت ألبدُ فيه.

هل نسيتُ أوهام الموت .. واستعدادى الدائم له؟

أيضا يقينى بأن جسدى يسير مسرعاً فى طريق الاضمحلال والنهاية. كنت دائم القول بأن جسدى (بيسلّم نمرْ).

الأنيميا، وعدم القدرة على الحركة، وعذاب طلوع السلالم.

وجهى وتورّمه المخيف، الذى وصل إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه، خصوصاً قبيل الغسيل. (العينان شبه المغلقتين، الخدّان المنتفخان، واللغد البارز)

كان كل من يلقانى، وخصوصا إن لم يكن رآنى منذ فترة، يبادرنى سائلا :

– إنت وشّك مشْ طبيعى. إنت تخنان؟ .. والاّ بتاخد كورتيزون!

– لا أبدآ .. وشّى وارم شوية بسْ.

– ليه؟

– فيه أوردة مسدودة فى الصدر والرقبة، من الجلطات، بسبب تركيب القساطر. والدم اللى بتضخّه العملية لمنطقة الوشّ والراس كتير. ولما ييجى يتصرف ما بيلاقيش أوردة سالكة كفاية, فبيحصل الورم.

(كنت أتسلّى بملاحظة الألم الذى تتقلّص له عضلات وجه محدثى, وكأنه يندم على سؤاله، خصوصاً عندما يصطدم سمعُه بكلمة جلطات).

صوتى المشروخ، المبحوح، الذى يشبه الفحيح.

هشاشة العظام, واستشراء الألم فى أكثر من مفصل، والعرج.

– لقد كتبت مسجلاً هذه اللحظات. أيضاً كتبت مرثيةً لحالى, وقلت أطمئنه: إننى لم أعدْ أعبأ بالطرائد. الآن حالى يعود, عودة الكلب الهرم إلى صباه (إن شئت الدقة.. ليس إلى صباه بالتحديد .. بل قلْ إلى كهولته) – وأخيرا.. مزاجى الكابى.

كل ذلك تبدّل, ومنذ وقت ليس بالقصير:

عدتُ للسهر إلى وقت متأخر عند (حاتم) أدخنُ الحشيش.

عدت أيضا لحضور الندوات, والإدلاء بدلوى. حضرتُ ندوتين لمناقشة ديوان إيمان الجديد، إحداهما فى

ورشة الزيتون، والثانية بالجيزة. وحضرت الحفلة التى أقامتها أول أمس, وسهرت حتى الفجر.

عدت إذن لإيقاع حياتى العادىّ، بمزاج سليم، وحالة صحية مستقرة.

أذكر الآن محمد فتحى, وسؤالَه الدائم لى كلما رآنى:

– إيه أخبار الصحة دلوقتى يا أسّ؟

وكنت أجيبه دائماً:

– بُمب والحمد اللّه .. أكتر من كده بقى يبقى افترا.

وكان يضحك فى كل مرة.

قلقسة

الثلاثاء ١٨/٧

٢ ظهرا

(عيادة الكلى..مستشفى المقطم)

ذات مرّة، كنتُ جالساً وسط بقية المرضى فى الاستراحة، منتظراً سماع اسمى، للدخول لمقابلة الاستشارى، لكى يكتبَ لى علاجى الشهرى، أو ليمدّد لى أجازتى، أو ليجدّد لى قرار الغسيل, لثلاثة أشهر أخرى.

بدأتْ الممرضة المصاحبة للدكتور بمناداة كلّ من يحين دوره. لم أكن أسمعها بالطبع، ولكنى كنت ألاحظ كل فترة، انتفاض أحد الجالسين، وتوجهه لغرفة الكشف.

أيقنتُ أننى لن أسمع اسمى إن ظللتُ جالساً مكانى. ووجدتُ لزاماً علىّ أن أذهب للوقوف بالقرب من الباب، بجوار آخرين ضعاف السمع مثلى، أو آخرين يفتشون عن ثغرة يمرقون منها، قبل أن يحين دورهم الحقيقى.

كنتُ أذهب إلى الباب, لأكتشف أن المنادَى ليس أنا، فأعود للجلوس، وبعد قليل أعاود الكرّة.

كنتُ عائداً للجلوس فى إحدى المرّات، وإذا بالمريض الجالس بجوارى يقول:

– لمؤاخذة يا أستاذ .. أنا شايفك رايح جىّ وتاعب نفسك, خلّيك مستريّح .. ولما تسمع اسمك .. قوم.

– ماهىّ دى المشكلة يا حاج، أنا سمعى تقيل, ومستحيل هاسمع اسمى وانا قاعد هنا.

– بسيطة .. قوللى على اسمك .. وأنا انبّهك أول ما اسمعه.

– واللهى يبقى كتّر خيرك. أنا اسمى ياسيدى: أسامة الدناصورى.

– سلامة الدمنهورى؟

– خلاص ياحاج ماتشغلش بالك (قلتها وأنا أكتمُ ضحكتى)

وقمتُ من فورى للوقوف بجوار الباب.

ألّفتُ هذه النكتة من الألف إلى الياء. فقط لنضحك أنا وأصدقائى. أصدقائى القتلة، الأوغاد، الذين بمجرد تيقّنهم من أريحيّتى، وعدم حساسيتى تجاه الأمر، حتى شرعوا يتفنّنون فى التندّر وإشعال الوقت بالضحك والمزاح، حول حكاية ضعف سمعى.

لكنى فى الحقيقة أمنحهم العذر كله فى فعل ذلك، لأننى أنا نفسى كنت الأكثر تفنّناً فى التندر على سمعى الضعيف.

أُصيبَ جهازى السمْعى بالعطب منذ سنوات طويلة. قال الأطباء: حدَث ذلك بسبب إفراطك فى تناول المضادات الحيوية، وبالذات (الجراميسين), وباقى عائلة (التتراسيكلين).

أذكر أننى عشتُ لسنوات أتناول الجراميسين على هيئة حقن، لمقاومة الالتهاب الذى يحدث فى جهازى البولى، بسبب الارتجاع من ناحية، واستخدام القساطر بشكل دائم من ناحية أخرى. قالوا أيضاً إن الجراميسين يدمّر العصب السمعى مباشرةً, ولا سبيل إلى إصلاح ذلك التلف.

ذهبتُ إلى أكثر من طبيب، وأجريت قياساً للسمْع أكثر من مرة، وكانت النتيجة: أن حساسية الأذنين للسمع ضعيفة، تكاد تصل إلى ٣٠%. ونُصحتُ باقتناء سماعة. لكننى نفرْتُ من الفكرة, واكتفيتُ بقدراتى المتواضعة على السماع. إذ أن الحياة تسير بدون سماعة. ولستُ أعتقد أن السماعة, ستجعل الحياة تسير أفضل.

اكتشفتُ أننى أسمعُ الأصوات التى تنحصر بين درجتين محدّدتين من التردد, .. بوضوح, وبلا أية معاناة. أما تلك التى يكون تردّدها أعلى أو أقل، فلا أسمعها مطلقاً.

مثلا: جرس الباب.

أنا لا أسمع صوت الجرس على الإطلاق. إلاّ إذا كنتُ فى انتظار أحدهم، وأعلمُ أنه سيضغط على زرّ الجرس بين لحظة وأخرى. وأكون جالساً بغرفتى القريبة من الباب، مرهفاً كل حواسّى، ومطفئاً كل جهاز يصدر أصواتاً. أو متمشّياً فى الصالة، حتى أكون إلى الباب أقرب. ورغم ذلك, كنت أتوجّه كل بضع دقائق إلى الباب,

وأضع عينى على العين السحرية. خوفاً من أن يكون أحدهم هذا, واقفاً هناك.

والسبب فى ذلك: هو أنى لا أسمع صوت جرسنا، لأنه (عصفورة). أى أنه يصدر صوتاً يشبه صوصوة العصافير. جرّبنا فترة تركيب جرس آخر يصدر صوت (بيانو)، ونقلْنا العصفورة إلى الطرقة، بجوار غرفة النوم. كنتُ أسمع الجرسَ جيداً فى هذه الفترة. صوت البيانو أميزه بدون عناء. لكنّ سهير ضجّت من الإزعاج, وقالت: إن صوت الجرس مزعجٌ جداً. وأنا أشفقتُ عليها, وعدنا ثانية إلى العصفورة وحده.

حدث كثيراً أنْ جاء أحد أصدقائى لزيارتى, وعاد من حيث أتى, لأننى لم أسمع الجرس.

يحدث أيضا أن أطلب من أم أحمد, زوجة البوّاب, أن تأتينى بالجرائد, أو علبة سجائر. وأنتظرها ساعات, ثم أفتح الباب غاضباً، ناوياً نهرها على التأخير، لأجد الجرائد على الدوّاسة أمام الباب. فأفهم أنها دقّت الجرس إلى أن ملّت, ثم نزلتْ بعد يأسها. قلت لها: لا تدقى الجرس، فلن أسمعه، بل اطرقى الباب بيدك.

(أنا أسمع صوت الطرق جيداً, حتى ولو كان ضعيفاً).

صرتُ أطلب ذلك أيضاً من أصدقائى. خصوصاً إذا كنتُ وحدى: قبل أن تطرق الباب, ابعثْ لى رنّة على الموبايل، ثم اطرقْ الباب بيدك.

أيضا الموبايل: كان لدىّ واحدٌ يصدر صوتاً ضعيفاً على شكل نبضات. كان يرنّ أمام عينىّ ولا أسمعه. اكتشفتُ أننى لا أسمع النبضات، بل أسمع التونات، أو

النغمات. ولذلك تخلصْتُ من ذلك الموبايل، وأخذتُ موبايل سهير ال (poliphonic)

أنا الآن أسمعه جيداً.

أسمعه وأنتفضُ من الخضّه فى كل مرة.

ذات مرّة طلبنى أحمد يمانى من أسبانيا. وبينما نتحدث، إذا به يقول لى:

– جرس الباب بيرنّ يا أووس.

– طب روح افتح, وأنا مستنّيك.

– هاهاها, يا أووس, جرس الباب بتاعكم هو اللى بيرنّ.

– بقى أنتَ ف أسبانيا وسامعُه يا روح امّك، وأنا اللى على بعد مترين مش سامعه؟

وبالفعل كان أحدهم نفسُه, واقفاً بالباب.

تكررتْ هذه الحكاية أكثر من مرة, مع أحمد, ومع آخرين.

عندما أشاهد فيلماً عربياً فى السينما مع سهير, يطير منّى معظم الحوار, بسبب رداءة الصوت (ليس هو السبب الوحيد بالطبع)

أحاول قراءة شفاه الممثلين، واستنباط الكلام بالتقريب. ولا أجدُ جدوى من سؤال سهير. لأنى سأضطرّ لسؤالها عن كل جملة تقريباً. لكنى أفاجأ أحياناً بأن الصالة تضج بالضحك فجأة، وسهير معهم. وإذا بى أنا الوحيد الذى لا يضحك فى الصالة. فأميل على سهير:

– هوا قال إيه؟.. طب والتانى ردّ عليه قالّو إيه؟

يحدث كثيرا أن أسمع صوت جرس وهْمىّ يرنّ فى رأسى، أقوم من فورى لأفتح الباب, فلا أجد أحداً.

يحدث أيضاً أن أكون ماراً فى الصالة, قادماً من المطبخ, أو خارجاً من غرفتى, وإذا بهاجس يقول لى: افتح الباب, لعل أحدهم واقفٌ منذ فترة. وقتها لا أكون قد سمعتُ جرساً حقيقياً, أو وهمياً، فقط: صوتَ هاجسى.

ومن العجيب, أننى فوجئت مرّات, بأن هناك من يقف بالباب فعلاً.

– طبعاً رنّيت كتير؟

– لا أبداً, دنا لسّه كنت هارنّ الجرس حالاً.

مضت فترة كنت أكثر من الالتفات خلفى كلما سرتُ فى أحد الشوارع المزدحمة، أو أحد الأسواق. أكون على يقين عندما ألتفتُ أن هناك من يناديني: (أساااماااااة) .. أقف، وأستدير، وأظلّ أحدّق فى الناس, ثم أعود وأكمل طريقى.

طبعا هناك بالتأكيد من نادى، ولكن لم ينادنى أنا.

يكون المنادِى قد صاح: سلامة، أو حمامة، أو علامة، أو مع السلامة, وقس على ذلك. لكنّ أذنى لا تلتقط سوى المقطع الأخير: (آمه)، فأظن أننى المقصود بالنداء.

تعلمْتُ أن (أقَلقس) (أألأس) معظم الحوارات التى تدور بينى وبين الآخرين, حتى تسير الحياة بنعومة كما تسير.

قلقسَ يقلقسُ قلقسةً, من القلقاس. وهو حسب تفسيرى: (جعْل رأسى أشبهَ بالقلقاسة الصماء, التى لا

تعى شيئا, ولا تهتمّ لشىء).

يبدأ أحدهم كلاماً معى, فأجد نفسى أمام عدة خيارات, تتوقف على مدى قربى من الشخص. أو تخمينى بمدى أهمية موضوع الكلام. وأيضاً مدى وضوح الكلام الخارج من فم محدثى.

إن كان الكلام غامضاً علىّ من البداية، إمّا لخفوت صوت المتحدث، أو لأكله بعض الحروف، أو لإضغامه الحروف فى بعضها: عند ذلك آخذ قرارى (بالألأسة) من البداية، ولكنى أعطيه وجهى المدرَّب جيداً. ويكون نصيبى من الحوار الذى قد يدوم لدقائق، هو الإيماءات، والابتسامات، وفتح العينين وإغلاقهما بمقدار، وتقلص عضلات الوجه، بما يوحى بأنى أشارك، وببلاغة كافية.

تمرّ معظم هذه (الألأسات) بسلام. ولكن الأمر لا يعدم مطبّا هنا أو هناك. وأكثر المطبّات التى أخشاها، هو أن يوجه لى محدّثى سؤالاً وسط الكلام، يُفترض أن أجيبَ عليه بنعم, أولا. فيفاجأ بأنى أجيبه كما أجبتُه طوال الحوار: بابتسامة، أو بهزّة من رأسى، أو بنظرة ذات مغزى. فينقطع المتحدث عن الكلام، وهو لا يدرك من الأمر شيئاً. وأعرف أنا على الفور, أنى قد وقعتُ فى المطبّ المحظور.

يحدث هذا مع قلة من أصدقائى, منهم (محمد هاشم) لأنه من ذلك النوع الذى لا أستطيع أن أفسّر كلامه, حتى لو قاله كلمةً كلمة، وبصوت عالٍ. إلا إذا أراد أن يقرأ لى نصاً كتبَه، أو يحكى لى أمراً غايةً فى الأهمية، ساعتها أستوقفه كل دقيقة:

– إيه؟ .. من تانى الجملة الأخيرة .. بتقول إيه بالظبط؟

أما فى الأحوال العادية، فأنا أُقلقسُه وأنا مرتاحُ الضمير. وذلك انتقاماً منه:

يحدث مثلا أن نكون جالسيْن فى الدار (ميريت) مع بقية الأصدقاء, وأسأله أىّ سؤال, مثلا:

– إنت هاتسهر فين الليلة؟

– فى الجوريون.

أكون قد سمعتّها صحيحة: (فى الجوريون)، واكتفيْتْ. لكنه لا يكتفى، بل يأتى ليميل على رأسى، واضعاً فمه فى أذنى, ويصرخ: **الجوريووون**. ثم يمضى وهو يدارى ضحكته.

فاطمة

الجمعة ٢٨/٧

١٠ مساء

سبتمبر ٧٥. بداية العام الدراسى. يوم السبت. الساعة السادسة صباحاً. محطة قطار محلة مالك.

توجّهنا أنا وأبى إلى المحطة, لنركب قطار السادسة والنصف, القادم من مطوبس، والمتّجه إلى دسوق، المحطة التالية مباشرةً، كنت أرتدى ملابس جديدة، مثل كل الطلبة أبناء محلة مالك: طلبة الإعددية, والثانوية بنوعيها: العام والفنى. الجميع متوجهون إلى مدارسهم وفصولهم الجديدة. كان أقرانى ذاهبين للمرة الأولى إلى (المرحلة الثانوية), وبالتحديد: مدرسة جمال عبد الناصر الثانوية العسكرية.

بينما أنا كنت متوجّها بصحبة أبى إلى الإسكندرية، ليتم حجزى فى المستشفى الميرى (مستشفى الجامعة).

كنا قد ذهبنا إلى عدد غير قليل من أطباء المسالك البولية، نقطعُ مع كل منهم مرحلةً طويلة، ثم نبحث عن آخر، ونكرّر نفس الخطوات: الأشعة، والتحاليل، وروشتّه جديدة, نسير عليها فترة, ثم نبدأ فى البحث والسؤال عن طبيب آخر.

آخر من ذهبنا إليه كان د. فاروق حمّودة، الذى قال لنا وكأنه يزف إلينا البشرى: هذا المرض (المثانة العصبية) عادةَ لا يستمرّ سوى ثلاث سنوات، وينتهى من تلقاء نفسه. كان قد مضى عامان، وأنا استكثرْتُ المدة الباقية: عامٌ كاملٌ سيمرّ, قبل أن ينتهى هذا العذاب!. ولذلك بحثْنا عن طبيب آخر، وكان د. محمد محمود الغراب، كبير أطباء المسالك البولية فى الإسكندرية، ورئيس القسم فى الجامعة والمستشفى. عندما فحصنى، وقرأ تاريخ المرض، ورأى الأوراق والأشعة قال:

– المسألة مش بسيطة، وماقدرش أحدّد أىّ حاجة، لازم يتحجز فى القسم عندنا مدة .. مدة طويلة، عشان نقدر نعمل كل الأبحاث الضرورية، و يشوفه كل دكاترة القسم، وبعدين نشوف هنعملْ إيه.

وهكذا أخذ أبى أجازةَ من عمله عاماً كاملاً بدون مُرتّب ، وتفرغ تماماً ليكون مرافقاً لى. وتحدّد يوم السبت، أول أيّام العام الدراسى, ليكون يوم دخولى المستشفى.

كنتُ فى غاية الحزن. أبكى بكاءً داخلياً لا ينقطع.

كانت (عايدة): البنت التى كنتُ مغرماً بها منذ الصف الأول الابتدائى، ولم أكن قد كلّمتها حتى تلك اللحظة, سوى بضع كلمات عجلى. والتى نشأتْ بيننا قصةٌ سريةٌ لم يعلمْ بها أحدٌ سوانا. لا تحتوى سوى على فصل واحد يتكرر دائماً، وينحصر فى نظرات لاتدوم

طويلاً كلما التقينا، ولكنها كانت مشحونة بكل ما فى كتب الحب من كلام.

كنتُ أعلم أننى سأراها على المحطة, كالعادة, وسط صاحباتها. وستلتقى عينانا ولو لمرة واحدة، يتم فيها تبادل كلّ ما يمكن أن يتم فى لقاء طويل: (إزيّك .. وحشتينى .. كلّ سنة و إنتى طيبة .. عام سعيد .. أنا سعيد ببداية الدراسة, عشان هاشوفك كل يوم). والذى كان يذبحنى، أن (عايدة) ستعلم بلا شك, بطريقة أو بأخرى, أننى كنتُ ذاهباً إلى المستشفى, وستشفقُ علىّ، ولن تكون نظراتها هى هى, عندما ترانى بعد عودتى. وكنتُ موقناً أننى فى سبيلى إلى خسران شىء ثمين، أغْنَى حياتى إلى تلك اللحظة, ولاسبيل إلى تعويضه أبداً.

بعد أيام من احتجازى, صار قسم المسالك البولية فى الدور الخامس, بيتى الجديد. كان الدور مقسماً إلى ثلاثة أقسام. كل قسم يتبع أستاذاً من الأساتذة الكبار. اثنان للرجال، وواحد للنساء. القسم الداخلى القريب من قاعة المحاضرات ومكتب رئيس القسم، كان يتبع رئيس القسم، ويتوارثه رؤساء الأقسام. يضم ثلاثة عنابر, يفصلها عن بعضها حائط زجاجىّ مصنفر. ولأنى تابعٌ للدكتور الغراب, رئيس القسم، تمّ تسكينى أنا وأبى, فى العنبر رقم ٣ بجوار السلم الأوسط.

كان القسم نظيفاً ومنظماً. يتمّ تغير الشفتات فى الثامنة. تأتى ممرضات الصباح, ليستلمن من ممرضات

السهر. يكون كل المرضى قد استيقظوا قبل ذلك بساعة.

إذ أن الدادت أو العاملات يأتين فى السابعة، ويبدأن فى مسح الأرضية والحوائط.

فى الثامنة, تغيّر الممرضات أغطية الأسرّة, وأكياس المخدات, ثم يأتى الإفطار (غالبا ما كان ينزل أحدُنا للاتيان بسندوتشات الفول والطعمية, من عند محمد أحمد القريب) وبعد ذلك يوزّعون علينا الجرعات الصباحية من الأدوية. ويجهزون من سيذهب لعمل أشعة, أو لإجراء منظار, أو جراحة.

فى التاسعة, يمر النائب ليطمئن على المرضى، يغير جرعة العلاج لأحدهم. أو يأمر بتجهيز آخر لعمل أى شئ. أو يكتب خروجاً لمريض ثالث.

النائب هو الدينامو الذى لا يهدأ طوال الوقت. يعرف كل شىء عن كل مريض. كنا نشعر أنه لا يبارح القسم ليل نهار.

كان يذهب إلى سكن الأطباء ليستريح بالطبع. لكننا كنا أحياناً نراه فى الفجر قادما ليطمئن على مريض ما.

كان د. عبد العزيز صبرى هو نائب القسم الشاب فى ذلك الوقت. كان شعلة نشاط لا تهدأ. الآن, أعتقد أنه قد صار رئيساً للقسم, أو كاد.

كانت هناك لوحةٌ خشبيةٌ صفراء, مكتوب عليها بالأسود, أسماء أطباء القسم حسب درجاتهم. فى الرأس رئيس القسم. ثم نائب رئيس القسم. ثم

الأساتذة, حسب الأقدمية. ثم الأستاذة المساعدون. ثم المدرسون. ثم المدرسون المساعدون. وأخيراً نائب القسم.

يتم تغيير هذه اللوحة كل عدة سنوات, فتصعد أسماء, وتختفى أسماء، وتضاف أسماء.

كل يوم سبت, كان يمر الأستاذ رئيس القسم, وخلفه الاصطفّ كله كاملاً, ومعهم النائب. يكون صباح السبت دائماً هو أكثر الصباحات هدوءاً, ونظافةً, ونظاماً, وصمتاً, فى انتظار (المرور). يقف الأستاذ عند كل سرير بضع دقائق، يقوم النائب أثناءها بشرح ملخص للحالة، ويطلعه على الخطوات التى تم إنجازها، فيوافق الأستاذ، أو يوصى بإجراءت جديدة، أو يأمر بخروج المريض، أو تجهيزه للجراحة، ثم ينتقل إلى مريض آخر.

عندما كان يصل إلىّ, كانوا يقفون طويلاً.

كانت حالتى معقدة. اجتمعوا لأجلها هى فقط, مرات عديدة. كل يقترح حلاً أو يقدم تفسيراً. وتنتهى كل هذه الاجتماعات, إما بالتوصية بالاستمرار فى الإجراءات المتبعة معى، أو بإضافة إجراء جديد لتجربته.

هاجمتنى نوبة الاحتباس والارتجاع بعد أيام من احتجازى, وكانت حادةً وشرسة, وتعذّر علىّ التبول نهائياً لعدة أيام.

أذكر أن د. مجدى الرقباوى, وكان مدرساً مساعداً وقتها، قد جرّب معى لأول مرة: (القسطرة). كانت حلاً سحرياً. بمجرد أن أدخل القسطرة إلى مثانتى، عبر عضوى, انطلق البول بقوة, ولوقت طويل، حتى امتلأ

الجردل بما يزيد عن أربعة لترات من البول والصديد. وأنا استرحتُ كما لم أسترحْ من قبل.

تعرفتُ على القسطرة, وتعرفتْ القسطرةُ على عضوى, ولم تتركه بعد ذلك.

فى أعقاب كل تبول, كانوا يُدخلون القسطرة ليقيسوا كمية البول المتبقى بعد التبول. وهل يحدث أى تغيّر فى حجمها بين فترة وأخرى؟

وفى أعقاب كل نوبة ارتجاع, كانوا يُدخلون نوعاً آخر من القساطر: (قسطرة فولى) وهى قسطرة دائمة, يتم تثبيتها فى المثانة لفترة, حتى تهدأ الكليتان تماماً, ويتم غسلهما بالمحاليل عن طريق الدم, حتى تطرحا كل الصديد العالق بهما.

القسطرة الفولى تختلف عن البلاستيكية العادية فى أنها من نوع رخو من البلاستيك، لكى تتشكل بشكل قناة مجرى البول, ولا تسبب أى أذى مع الوقت. تنتهى بثقب أو اثنين بجوار رأسها, ثم فتحة فى نهايتها لإخراج البول.

توجد قناة نحيلة ملاصقة للقسطرة, تبدأ من أسفل بسدادة، وتنتهى قرب الرأس بجزء رقيق قابل للنفخ, إذا حُقنتْ القناة بسائل ما- عبر السدادة – لتُصنع بالونة, تمنع القسطرة من الانزلاق من عنق المثانة.

كان المفترض أن تُفتح القسطرة طوال الوقت فى خرطوم ينتهى بكيس لتجميع البول. حتى لا يشكّل تجمع البول أى ضغط على الكليتين المرهقتين. كنت أوصلها بالكيس وأفتحها طوال نومى. أما بالنهار فهى

مغلقة دوماً بأمبول ما، وكل فترة, أذهب لإفراغ مثانتى فى دورة المياه, ثم أسدّها وأعاود الحركة فى كل مكان.

لم يمض وقت طويل حتى حفظنى كل الأطباء, والممرضات, والمرضى. وبينما أنا أتنقل من سرير إلى سرير، ومن مكتب لمكتب, كان أبى على سريره يقرأ الجرائد, أو يطالع كتاباً ما, أو ينام.

كنتُ أسهر مع ممرضات السهر حتى وقت متأخر, يتحدثْن فى كل شىء بلا خجل أمامى. حتى أنهن كنّ يُلمحن وسط الضحكات العالية, إلى أعضاء المرضى, ويقارنّ بين أحجامها.

مريض المسالك البولية لابد أن يغير علاقته بأعضائه منذ اليوم الأول. تنتفى الخصوصية والسرّية تماماً, وتصبح الأعضاء مكشوفة لأعين كثيرة: أعين الأطباء أولاً, ثم أعين الممرضات, وأخيراً بعض المرضى المتلصصين.

كانت الممرضة أحياناً هى التى تقوم بتركيب القسطرة, فى حالة عدم تواجد النائب. تمسك العضو (لابد من ذلك)، ثم تركب القسطرة. كنت أمتلئ بالرعب خوفاً من أن يتمدّد فى يدها. وكنت أهرب, أو أظلّ أماطل, حتى يجئ النائب.

تصاحبت مع (عصمت). كان أقدم منى بسنوات, ويكبرنى بعدة أعوام. كان صعيدياً يمتلك أبوه وكالةً لبيع الخضار فى الحضرة. وكان مدلّلا, وطيّباً, وظريفاً. صرنا لانفترق رغم تحذيرات أبى.

– الواد ده بايظْ ماتمشيش معاه.

علّمنى عصمت التدخين. كنتُ أدخن من قبل, ولكننى كنت هاوياً. احترفتُ على يدىْ عصمت. ذهبنا كثيراً فى جولات استكشافية فى المستشفى, وخارج المستشفى. إلى أن وصلنا إلى كلية الطب, وكافيتريا كلية الطب. كان يعاكسُ البنات, وأنا أتعلم منه فنون المغازلة, وندخّن طوال الوقت. وأخذ يمدنى بالمعرفة: "الدكتور فلان, بيحب الممرضة فلانة". "التومرجى الفلانى, على علاقة بالتومرجية الفلانية". وهكذا أضاء لى طريقى, ورسم أمامى الخريطة, وأنا سرتُ بعد ذلك معتمداً على نفسى تماماً.

أحببتُ (فاطمة)، أول حبّ ناطق فى حياتى – أحببت قبل ذلك كثيراً, لكنه كان حباً صامتاً أو سرياً – كانت فى الصفّ الثانى فى مدرسة التمريض, يعنى: (تانية ثانوى تمريض). أى أنها كانت تكبرنى بعام. كنّ يأتين أفواجاً للمكوث فى كل قسم لعدة أسابيع, ثم ينتقلْن إلى قسم آخر. ظهرتْ فاطمة فى حياتى, قبل شهر من مغادرتى المستشفى.

بمجرد رؤيتها تحوم فى القسم ببدلتها البيضاء, وكابها الأزرق, وسط زميلاتها، تغيرتْ حياتى فى التوّ واللحظة.

كانت تقضى بجوار سريرى معظم الوقت الذى تمضيه فى القسم. كلام.. لا نكفّ عن الكلام. تحدثنا فى يوم عن الدراسة. وأننى متأخرٌ كثيراً عن أقرانى. وأننى لستُ مهموماً سوى بمنهجَىْ اللغة الإنجليزية

والفرنسية. الباقى يمكن تحصيله. وكنت خائفاً من قدرتى على استيعاب القصة:

أوبريشن مسترمايند (operation mr mind).

قالت: إنها لديها نسختها التى درستْها العام الماضى. وأن أغلب كلماتها مترجمة للعربى، سآتيك بها.

وفاجأتْنى بأنها عادت لى فى نفس اليوم, وقتَ الزيارة, وهى ترتدى ملابسها العادية, وفى يدها القصة. وأمضت معى وقت الزيارة كله.

خرجتُ من المستشفى بعد أن صار حبُّنا معلناً للجميع: زميلاتها, كل المرضى, والممرضات, ومن قبلهم أبى.

صرنا نتبادل الرسائل الملتهبة الطويلة. بعد قليل, أخذتْ تقصرُ رسائلها, وتطول رسائلى. ثم جاءتنى آخرُ رسالة, وفيها تأكيد على أن الحب الذى يجمعنا لن يموت, ولكنّها لا ترى أى أمل فى استمراره. وأهدتنى نصيحة غالية:

– ياريت تسمع أغنية عبد الحليم (حاول تفتكرنى) وفكّر فيّا وانتَ بتسمعها, كأنى أنا اللى باغنيهالَك.

وظللتُ أسمع (حاول تفتكرنى) وتدمعُ عيناى.

لم أكفّ عن حبها. بل تعلّمتُ لأجلها الشعر.

كتبتُ الشعر من أجل: فاطمة محمد على جمال الدين. وكتبتُ أول قصيدة, ولم أصدق نفسى. كانت عموديةَ, ومقفاةَ, كما تَعلّمنا, تشبه اللزوميات. إذ

تنتهى كل الأبيات بمقطع ثابت (آته): خفقاته, خلجاته, آهاته.

بمجرد أن انزلقَتْ قدمى إلى عالم الشعر, استحوذ على كل اهتمامى ومشاعرى. ورضيتُ به بديلاً مقنعاً لفاطمة. بل وشكرت فاطمة فى سرى, لأنها كانت السبب الذى دفعنى إليه.

كنت أكتب بغزارة, بالفصحى, وبالعامية, وفى كل شىء.

ولم تمض بضعة أسابيع على حالى الجديد, حتى شرعتُ فى كتابة سيرتى الذاتية.

وقتها, كنتُ قد قرأت الأيام لطه حسين. وكنت مفتوناً بها. أيضاً كنت قد قرأتُ رواية اسمها (الفارس), من سلسلة: روايات عالمية. كان الكاتب يصف دائماً ذلك الفارس, بطل الرواية المغوار, بأنه من (حثالة النبلاء). فوقَرَ فى نفسى, أن حثالة النبلاء تعنى: علية القوم.

وبدأتُ سيرتى بالحديث عنى بوصفى غائباً, فأقول جاء صاحبُنا, ذهب صاحبُنا, متأثراً بطه حسين.

وفى إحدى الفقرات, بدأتُ الحديث عن والد صاحبنا, بأنه رجلٌ من حثالة النبلاء.

أكملْتُ عدة صفحات, ولم أطق الانتظار, فجريْتُ على أبى لأقرأ عليه ما كتبت.

أذكر: كان مستلقياً على ظهره فوق السرير، وأنا أقرأ واقفاً بجواره. كان يبتسم, إلى أن نطقتُ بعبارة: حثالة النبلاء, فامتعض, ونظرلى قائلاً :

– غيّر الكلمة دى.

– كلمة إيه؟.

– حثالة.

– ليه؟

– ابقى شوف كلمة غيرها.. كمّل.

ظللتُ لسنوات طويلة لا أفهم هذا الطلب الغامض من أبى, إلى أن عرفتُ فيما بعد, معنى كلمة حثالة, وعرفتُ أنه كان مُحقاً تماماً فى طلبه هذا.

طائر الفينيق

الخميس ٣/٨

٤ عصرا

مثلما يُبعثُ طائرُ الفينيق من رماده,
اليوم .. هبَّ الكلبُ الهرمُ من مرقده,
وعاد
مهرولاً
إلى
صباه.

أنياب دراكيولا سقطت

الثلاثاء ٨/٨

ا ظهرا

(مطروح .. شاطىء الغرام)

ظللتُ مقيماً فى المستشفى الميرى ستة شهور كاملة أنا وأبى.وخرجتُ منها لأبدأ حياة جديدة: مدخّناً, وعاشقاً, وشاعراً.

داومتُ على الذهاب إلى د. الغراب, ثم انتقلتُ بعد وفاته إلى د. ممدوح قريطم, والذى أشرف على حالتى وعلاجى طوال السنوات التى تلت ذلك, وحتى انتقالى للعيش بالقاهرة.

لم تنقطع علاقتى بقسم المسالك البولية بالمستشفى, طوال هذه الفترة. كنتُ دائم الذهاب, إما لزيارة عادية, أرى فيها الزملاء المرضى. أو ليتمّ حجزى بضعة أيام, تُجرى لى فيها بعضُ الفحوص، من أشعة, وتحاليل, ورسم مثانة.

كان رسمُ المثانة أسلوباً تقنيّاً جديداً ومتطوراً لفحص المثانة العصبية. الغرض منه الوقوف علىالحالة العصبية للمثانة والصمامين أثناء التبول, وبعد التبول. وكان الدكتور (صلاح السلمى) هو الطبيب المتخصّص فى هذا النوع من الأبحاث, ومعه مفتاح الغرفة الخاصة بذلك. عندما كان يرانى فى الطرقة, بعد فترة غياب,

يبتهج, ويأخذنى من فوره إلى غرفة الأجهزة, ليبدأ العمل. أجلس أنا على الكرسى الخاص. ويقوم هو بتوصيل الأجهزة بى, عن طريق الأسلاك التى يشبكها فى أماكن متعددة فى جسدى. ويطلب منى التبول فى وعاء معين, متصلٌ هو الآخر بالأجهزة, ليقيس قوة تدفق البول, وحجمه, وطبيعة الاستجابات العصبية فى المثانة, ومجرى البول, أثناء التبول. ثم يُدخل قسطرةً رفيعة, متصلةً بزجاجة محلول ملح, ويملأ المثانة حتى آخر قدرتى على التحمل. ثم ينزع القسطرة, ويقيس ضغط المثانة, وضغط الصمامين, ويطلب منى التبول ثانية, ليقيس أيضا. بعد أن ينتهى تماماً, يعيد إدخال القسطرة, ليقيس الكمية المتبقية. وتخرج النتائج على ورق الرسم البيانى, الذى يشبه رسم القلب.

كنت أخرج من كل فحص لأعانى عدة أيام من التهاب فى مجرى البول, وحرقان أثناء التبول, بسبب كثرة إدخال وإخراج القسطرة.

أحببتُ قسم المسالك البولية بالدور الخامس كبيت لى. بل لقد نشأت علاقة قوية, ربطتنى إلى الآن, بجو المستشفيات بشكل عام. عندما أسيرُ فى الطرقات الطويلة, ذات السيراميك الأبيض, والحوائط البيضاء, أحسّ للتوّ, بأنى أسير فى أماكنى الأليفة. وظلَلْتُ إلى الآن, أسيراً لرائحة المطهرات القوية, التى كانت تنبعث من الذاكرة لتملأ خياشمى, عندما أجد نفسى فى أماكن تشبه المستشفى.

عندما انتقلنا للعيش فى دسوق, بعد عودتى من المستشفى بسنتين, سكنّا فى شقة بعمارة الأوقاف, أعلى قصر الثقافة. كانت العمارة بيضاء وضخمة, بكل دور ثمانى شقق, تفتح كلها على صالة فسيحة وممتدة, بسيراميك أبيض وحوائط بيضاء. ذكرتنى بالمستشفى منذ اليوم الأول, وظللتُ حتى النهاية, أشم رائحة المطهرات, كلما خرجتُ أو دخلت.

عدتُ من المستشفى بعد قضاء ستة أشهر كاملة, لأجد أنه لم يتبق سوى شهر أو يكاد, على امتحان نهاية العام. نصحنى أبى بألاّ أفكر فى دخول الامتحان, وأن أؤجل للعام القادم. لكننى رفضت, وأصررتُ على المذاكرة والامتحان.

أنا المتفوق, الذى لم يكن ينافسنى فى البلد, سوى إبراهيم عباس. (فاز بالمركز الأول فى الابتدائية, متقدماً علىّ بدرجتين, لأعود وأفوز عليه فى الإعدادية, وبفارق نفس الدرجتين).

ذاكرت, وأديتُ الامتحان, وراجعتُ مع زملائى عقب كل مادة, وتأكدت من نجاحى, وانتظرته. لكننى فوجئت برسوبى, وصُدمْت, وطلبتُ من أبى أن يطلب إعادة تصحيح الأوراق. ولم يكن متحمساً. وتحت ضغط إلحاحى سأل أحد أقربائنا, وكان فى الكنترول, فأجابه بأننى ناجحٌ فى كل المواد على الورق, ولكننى لم أنلْ درجةَ واحدةَ من أعمال السنة.

أرضتْنى تماماً هذه الإجابة، وجبَرتْ كبريائىَ التعليمىّ المشروخ. لكن علاقتى بالتفوق تبدّلت تماماً.

خصوصاً بعد أن جربتُ الرسوب, ورأيتُ أن الحياة لم تتوقف, وأننى لم أفقد أصدقائى القدامى, بل اكتسبتُ أصدقاءَ جُددْ. واكتشفتُ أن الوقت الذى ينفق بسخاء على المذاكرة والتحصيل, حرىّ به أن ينفق فى مجالات أكثر متعة: فى الشعر, والقراءة, والندوات. واكتشفتُ أيضاً أن الفزع الدائم من الرسوب ليس له أى داع. وأن النجاح لا يتطلب بالفعل, سوى إقامة المعسكر المعتاد قبل الامتحان بأيام, مضاف إليها الأيام التى تسبق امتحان كل مادة .

أسعى بكل نشاط بين زملائى الجادّين, لجمع التلخيصات, والأوراق المهمة, وتصويرها, والعكوف عليها, ثم اللجوء لنفس الزملاء, لشرح بعض الأمور والمسائل الغامضة. ثم دخول الامتحان بتوتر عال, وانتظار النتيجة بقلق متكرر.

اعتدتُ على ذلك فى سنوات المرحلة الثانوية الثلاث, وسنوات الجامعة الخمس بعد ذلك. كنت أكرّر لنفسى كل عام: لابد أن أنجح, ليس من أجلى أنا, وإنما من أجل أبى, الذى كان يتصيّد أخبارى وهو فى السعودية, عن طريق قريب لى, أستاذ بكلية الزراعة بالإسماعيلية. كان دائم الكتابة له: أن أسامة غير معروف فى قسم جيولوجيا بكلية العلوم. وأنه ينفق وقته كله مع طلبة كلية التربية، فى التحضير للحفلات والأمسيات, والكتابة فى مجلات الأسر المختلفة. وكان أبى يرسل لى دائماً خطابات شديدة اللهجة, يحذرنى فيها من الغىّ الذى

أسير فيه: (الشعر مش هاينفعك .. ذاكر وخد بالك من دروسك)

جرّبتُ مرة وأرسلتُ له قصاصةَ من (جريدة القناة) منشورٌ لى فيها قصيدةٌ بعنوان: (العالم يموت) وفوقها صورة لى. لكنه فاجأنى برسالة محبطة, كثف فيها كل أوامره, ونواهيه, ونصائحه: (سيبك بقى من الكلام الفاضى ده, وخدْ بالك من مستقبلك).

كان لرسوبى فى أولى ثانوى نتائج هامة. إذْ ودّعتُ (عايدة) إلى الأبد, وأقصيتها عن أحلامى تماماً. خصوصاً بعدما تمّتْ خطبتها لأحد أمراء الجماعة الإسلامية الوليدة فى بلدنا. ولحقتْ بى (سلوى) التى كانت تصغرنى بعام.

كنا أقرباء من بعيد, وكنتُ قد قمتُ بمغامرتى الأولى مع (نوال) شقيقتها الكبرى وزميلتى.

{ كانت تجربتى الأولى- خارج نطاق تجارب الطفولة الساذجة – فى التعرّف على جسد الأنثى. كانت نوال شقراء، تكاد تكون جميلة. كنا فى الإعدادية، وكنا نلتقى ثلاث مرات فى الأسبوع, لمدة ساعتين, أنا ومجموعة من طلبة الإعدادية، لأخذ درس الرياضيات (جبر وهندسة) عند الأستاذ سيد العربى. كانت نوال وعايدة وأخريات, يجلسن فى الصف المقابل لى, حول (ترابيزة البنج بونج) الواسعة. أنا أشطرُ المجموعة, وأعرف حلّ كل المسائل، والتى أكون قد حلَلْتها وحدى فى البيت قبل الدرس. ولذلك كنت أجلس موجّها كل اهتمامى

ونظرى إلى عايدة, ووجه عايدة, ولفتات عايدة وسكناتها. بينما لاتكاد نوال تحيدُ بنظراتها عنى أنا (كانت نوال فى الحقيقة مغرمةً بى).

وفى إحدى الليالى, وبعد انتهاء الدرس, طلب منى (سامى) ابن عمة نوال, أن أجىء معهما إلى بيته القريب من بيتنا, لنستذكر سوياً الدرس الأخير فى الجبر, والذى لم يفهماه جيداً, وحلّ مسائل الواجب, التى سيراها الأستاذ سيد فى الحصة القادمة. ووافقت. ولدى وصولنا إلى بيت سامى, وقبل أن نهمّ بالدخول, طلب منا أن ننتظره قليلاً, حتى يجهّز لنا غرفة الجلوس, ويشعل اللمبة (نمرة ١٠) (ويستأذن أمه بالطبع). وبقيت أنا ونوال وحدنا فى الشارع المعتم, فى بلد تغطّ فى النوم عقب صلاة العشاء مباشرة, يلفّنا الصمت والعتمة.

وإذا بى, بلا مقدمات, أضم نوال إلى حضنى, وأمطر وجهها بالقبلات الملتهبة, بينما هى تحتضن كتبها, وتضمها بذراعيها إلى صدرها بقوة, ولا تُبدى أى حراك. تجرأتُ وفككتُ لها أزرارَ ثوبها, وأدخلتُ يدى وأمسكتُ بصدرها .. ياإلهى! ماهذا!

(لن أنسى ماحييت, صدمة المتعة الأولى تلك, والتى أحطتُ فيها بقبضتى هذه, ذلك الثدىَ الصغير الطرىّ, وحلمتَه الناتئة على استحياء, كفقاعة رقيقة).

كان صدرها شاهقَ البياض. أضاء عتمة الشارع.

ثملتُ من المتعة. حتى وجدتنى, بلا وعى, أحاول أن أرفعَ ذيل ثوبها, وأنا ممسك بحالى متخشباً. لكنها انتفضتْ بعنف قائلة:

– إنت هاتعمل إيه؟ .. إحنا فى الشارع.

فعدت من فورى إلى رشدى, وعاد سامى إلينا هو الآخر, طالباً منا أن ندخل الآن لنبدأ المذاكرة .

صارت نوال جنّتى الصغيرة, التى تجوّلت فيها قاطفاً أولى ثمار متعتى.

كنا نلتقى أيضاً فى درس اللغة الإنجليزية, فى بيت الأستاذ مصطفى (الذى تزوج من سلوى فيما بعد), وكنتُ معتادا على توصيلها إلى بيتها بعد انتهاء الدرس (كانت تخاف من الكلاب والعفاريت), وفى طريقنا, كان هناك سردابٌ طويل, بالغُ الضيق, وغارقٌ فى عتمته تماماً, يقع بين بيتين. (كنت أخاف من الدخول إليه وحدى بالنهار). لكنى كنتُ آخذ نوال, وندخل معاً إلى عمق السرداب الموحش, لنمارس صلاتنا المحرمة.}

كانت سلوى نقيضاً لنوال. نوال الطيبة، الوديعة، الأقرب للسذاجة. بينما سلوى: الحاذقة, الجميلة, قوية الشخصية. كانت معترضة على علاقتى بنوال, ودائمة الزود عنها. وكلما التقت بى تواجهنى بموشّحها المعتاد:

– إنت عاوز إيه من نوال؟ ما تسيبها فى حالها.

– طب وانتى مالك؟

– مالى ازاى؟ ولاّ عشان نوال طيبة؟

عندما لحقتْ بى سلوى, كانت بصحبتها نوال, الراسبة فى الإعدادية. نسيتُ نوال تماماً, وتوجهتُ بكل طاقتى إلى سلوى.

أحببتُ سلوى طيلة ثلاث سنوات. زاعتْ قصتنا, وانتشرت خارج حدود الأسرتين. وتوالت قصائدى بالفصحى والعامية, وجرتْ على ألسنة الأصدقاء والزملاء, إلى أن خُطبت سلوى إلى مصطفى (درش), أستاذنا المشترك. وتلقيتُ أولى الطعنات التى ذبحتْ قلبى, وصنعتْ مجرى صالحاً لطعنات أخرى فيما بعد.

كتبتُ فى أعقابها ديوانين كاملين, أحدهما بالفصحى: (أنياب دراكيولا سقطت), والآخر بالعامية. وملأتُهما بقصائد تطفح بروح الانتقام. بل وبالتمثيل بشخص المحبوبة الخائنة. يبدو ذلك من العناوين: (جواب إلى خائنة)، (واحدة طالعة فيها خالص)...إلخ

انتقى عمى خيرى قصيدتين بالعامية: (أصلى انتهيت)، و (من سكات). ووضع لهما لحنين مأساويين, متناسبين مع طبيعة الكلمات. والغريب, أنه ظلّ إلى سنوات قريبة ماضية, يغينهما, وبالأخص (من سكات), فى جلساته الخاصة, تلبيةً لرغبة أصدقاءه ومعارفه, الذين كانوا يستمعون إليها بشغف, وبعيون تترقرق فيها الدموع.

كنت أخرج من كل قصة حب محطّماً, وفى حوزتى كم لا بأس به من القصائد. أرمّم نفسى سريعاً, لأدخل قصة جديدة.

إذ أن الشعر, ذلك الطفل, المتطلبُ, الأنانىّ, بالغ الدلال والتمنع, يحتاج إلى وقود دائم من الأعصاب الحية, والمشاعر الطازجة.

تركتُ الإسماعيلية, بعد أن أمضيت بها عامين فى السنة الأولى, وحوّلتُ إلى علوم الإسكندرية, لألتحق بدفعة السنة الثانية بقسم الجيولوجيا.

تركت الإسماعيلية حزيناً, نزولاً على رغبة أبى. مضحّياً بالمجد والشهرة اللذين تكوّنا عبر عامين كاملين. كنتُ فيهما شاعر الجامعة بلا منازع. يعرفنى شخصياً رئيس الجامعة, وعميد الكلية.

الجامعة الوليدة, التى لم تكن قد خرّجت طالباً واحداً عندما التحقتُ بها, حيث كنتُ أنا وزملائى ثالث الدفعات. وعندما اجتزت أنا السنة الأولى بعد عامين, كان موعدَ تخرّج أولى دفعاتها.

كان النشاط الفنى هو أبرز أنشطة الجامعة. كلّ الوسائل ميسرة لذلك, وأهمها مسرحها الكبير الفخم, ذى القاعة الواسعة, التى كانت تضم فى صفوفها الأولى, رئيس الجامعة, وعمداء الكليات الثلاث: علوم، وتربية, وزراعة, وهيئة التدريس بكاملها, ثم معظم الطلبة والطالبات .

كانت تقام الحفلات بمناسبة, وبغير مناسبة. لم يكن يمضى شهر, دون أن تكون هناك حفلة جديدة. الجامعة بها فرقة مسرحية, وفرقة غنائية (gold star) جولد ستار, وأنا.

كل حفلة كانت تقدّمُ عدة اسكتشات مسرحية, وعدة أغنيات فردية وجماعية, تتخللها عدة فقرات ثابتة لى, لإلقاء قصائدى, بأدائى المسرحىّ, الذى كان ينتزع التصفيق والآهات.

حتى أنى طمعْتُ فى كرم الجمهور, وحبّه لى. وصعدتُ إلى المسرح فى إحدى المرات (مغنّيا):

كانت إحدى أزجالى الفكاهية عن البلالير (جمع بلّورة) نسجتُها على منوال أغانى السمسمية, التى كان يغنيها سيد الملاح. وأقنعتُ ثلاثة من أصدقائى, بالوقوف خلفى على المسرح, صانعين كورَساً لى, ليردّدوا اللازمة الشهيرة: (اللّه), فقط, عقب كل جملة أغنّيها.

وفجأة , وبعد أن بدأتُ بقليل, إذا بهم يتسربون من خلفى واحداً واحداً, ويتركوننى عارياً على المسرح, وحدى, أغنى وأردّ على نفسى.

أكملتُ الأغنية حتى النهاية, ببرود لم أكن أتوقعه عندى. لكنى أصررْتُ على الصعود إلى المسرح بعد ذلك, فى فقرة أخرى, لإلقاء إحدى قصائدى الوقورة. كى أمحو من ذاكرة الجمهور, ذلك العار الذى لحق بى فى الفقرة السابقة. ولم أعدْ إلى تكرارها بعد ذلك.

جنة الفشل الكلوى

الاثنين ١٤/٨

،اصباحا

جانبٌ كبيرٌ من مرضى المسالك البولية, محكوم عليهم أن يظلّوا رهينةَ بيد المرض, حتى آخر يوم فى حياتهم. باستثناء من كان سعيدَ الحظّ مثلى, والذى قُدّر له أن ينتقل من هذه الخانة, إلى خانة مرضى الكلى, بعد إصابته بالفشل الكلوى.

(دائماً ما كنتُ أردّد لأصدقائى: أننى ظللتُ مريضاً طوال ٢٢ عاماً, ثم شُفيتُ بالفشل الكلوى).

لقد أراحنى الفشل الكلوى تماماً من عذابات الاحتباس, والارتجاع, والمغص الكلوىّ القاتل, والتبول اللاّ إرادى, وحرقان البول, والتردّد على الحمام كل ربع ساعة, وتركيب القسطرة لنفسى, عدة مرات فى اليوم.

حقيقةَ أن الفشل الكلوى لا يخلو من معاناة, ولكنها تتضاءل كثيراً بجوار عذابات ما قبل الفشل الكلوى الدائمة. تتضاءل حتى تصير نعيماً واستقراراً, أعرفه, وأفرح به, لأوّل مرة فى حياتى.

عرفتُ كثيرين من النوع الأول, الذين ربطتْهم علاقة متينة لا تنقطع طوال حياتهم, بأطباء, وبقسم المسالك البولية بالمستشفى. هناك من أتوْا إلى القسم أطفالاً, وظلّوا يكبرون إلى أن شبّوا عن الطوق,

وراهقوا, ثم صاروا رجالاً, بشوارب وذقون. ويعلمون أنهم سيظلّون هكذا إلى أن يموتوا.

تتغير أطقم الأطباء, والممرضات, وتشيخ العاملات, والعمال, ويخرج مرضى, ويأتى آخرون, ليبقوْا, أو ليرحلوا بعد فترة.

أما هم فيبقون كرمز, أو جدار, أو كأيقونة تلخّص روح المكان.

عرفت (مصطفى) الذى دهستْه سيارة مسرعة, وهو طفلٌ فى الرابعة. أصيب ضمن ما أصيب بتهتّك فى الحوض. عندما رأيتُه فى المرة الأولى لى فى المستشفى, كان شابا يناهز الخامسة والعشرين. وكان قد أجرى حتى ذلك الحين, حوالى ١٢ عملية جراحية, ومازال ينتظر جراحات أخرى.

كان يشرف على حالته د. مصطفى الرفاعى, الذى كان له بمثابة أب, يتكفل بمصاريفه داخل وخارج المستشفى. وحتى عندما رغب مصطفى فى الزواج, باح برغبته لأبيه الروحى, فقال له:

– نقّى انت بنت الحلال, وأنا جاهز بكل المصاريف.

كان مصطفى يغيب عن القسم أسابيع, وأحياناً شهوراً, ثم يعود ليقول: كنت فْ أجازة.

عرفتُ (عادل), الذى رأيتُه طفلاً صغيراً يمرح فى القسم, عندما احتُجزْتُ فى إحدى المرات, أثناء دراستى الجامعية.

كبُر عادل سنةً بعد سنة أمامى. كانت أمه تزوره مرة كل شهر, آتيةً من إحدى القرى البعيدة.

كان يعانى من المثانة العصبية, مثلى تماماً. ومرّ بما مررْتُ به خطوةً خطوة. وكان يحفظ حالته باللغة الإنجليزية. وعندما كان يزورنى علاء خالد, كنت أنادى عادل, وأطلب منه أن يشرح للأستاذ علاء حالته, فيبتهج, ويتدفق منه الكلام ملغّماً بالمصطلحات اللاتينية التقيلة.

نيوروجينيك بلادر (مثانة عصبية) Neorogenic bladder

كرونيك ريتينشن (احتباس مزمن) Cronic retention

اكسترنال سفينكتر (الصمام الخارجى) External sphencter

باى لاتيرال ريفلاكس(ارتجاع فى الجانبين) by lateral reflux

أحبّ عادل الشعر والقراءة, وكان علاء يزوّده دائماً بما يقرأه. ثم فاجأنا مرةً وقرأ علينا شعراً له هو.

عرفت (سيد) العريس الجديد . الذى هبّ من نومه ذات ليلة, فى أحد أحياء مدينة دمنهور, صارخاً، ليجد زوجته المجنونة, جالسة القرفصاء على السرير, وممسكة بسكين يقطر منها الدم.

نظر سيد إلى مكان الألم بين فخذيه, كان عضوه مذبوحاً, تتدلّى رأسه, التى لم يعد يصلها ببقية العضو, سوى قطعة رقيقة من الجلد, بينما كان خرطوم من الدم ينطلق ليغرق وجه زوجته التى تضحك بشكل هيستيرى.

قبض سيد على أشلاء عضوه, وخرج يتخبّط مولْولاً فى الشارع. حمله الجيران إلى مستشفى دمنهور فى التوّ. (لصّموا) له هناك عضوه المهترىء (كلّشنْ كان) . ثم رحّلوه فى الصباح إلى قسم المسالك البولية بمستشفى جامعة الإسكندرية, ليدخلوه إلى غرفة العمليات فورآ, ويعيدوا ترميم ما أفسده الدمنهوريّون.

أجرى (سيد) ست عمليات فى عضوه, ولم يكن حاله قد انصلح بعد, حين تركت المستشفى. كان يتبول من ثقب فى المثانة, فتحوه فى جدار البطن, وأدخلوا منه قسطرةً دائمة, اسمها (سوبرا بيوبيك)

ركّبتها أنا أيضاً فى بطنى لمدة عام كامل فيما بعد. كان الأطباء يفكّرون بأن وجود مثل هذه القسطرة الدائمة, ولمدة طويلة, حرىّ بأن يخفف الضغط على الكليتين, وكانوا يأملون أن تتحسّن وظائف الكلى بمرور الوقت, وهذا ما لم يحدث. ورغم أن مكان القسطرة الطبيعى هو قناة مجرى البول, إلا أنهم ثبّتوها فى البطن, لمعرفتهم أن عضوى, يوجد على كاهله أعباءٌ ومهامٌ أخرى, غير التبول, فتركوه لها.

«سناء»

الخميس ١٧/٨

٧ مساء

كانت (فاطمة محمد على جمال الدين) هى الحبة الأولى فى عنقود الممرضات اللاتى أحببتهن، أو جمعتنى بهنّ حكايةٌ ما. عبر رحلتى الطويلة فى التنقل بين المستشفيات والمراكز.

هل كانت فاطمة هى السبب؟

هل كنت أبحث عنها فى كل ممرضة اقتربتْ منى، لنكمل ما بدأناه؟ .. ربّما.

أين أنت الآن يا (سناء)؟ .. وماذا فعلتْ بك الأيام؟

فى ليلة من ليالى شتاء ٨٥، كان قد تم احتجازى فى المستشفى إثر نوبة احتباس وارتجاع شرسة.

وقتها, كنت أسكن فى شقة بشارع تانيس, بالإبراهيمية، وكان لايزال معى أخى المرحوم (أشرف)، فى سنته الثانية بالجامعة، وقبل أن يموت بعدّة أشهر.

أمضيتُ الليلة فى توجع وأنين وصراخ, من جرّاء الآلام المبرّحة التى كادت أن تفتك بجنبَىّ. فى الصباح بدأت الحياة تدبّ فى القسم، مع قدوم الممرضات, والأطباء، واستلامهم العمل, بالشهيّة المعتادة فى بداية كل يوم.

انتبهتُ إلى تكوّن حلقة حول سريرى, من طالبات المعهد العالى للتمريض. كنتُ أراهنّ للمرة الأولى: جميلات، رشيقات، ناعمات، أنيقات.

لم تكن الواحدة منهن تعدّ نفسها ممرضة. بل مساعدة طبيب (هذا هو المسمّى الوظيفى لها بعد التخرج). إذ تدرُس فى المعهد معظم ما يدرسه طالبُ الطب، وباللغة الإنجليزية. ولذلك فهى تنظر إلى نفسها نظرة الطبيب إلى نفسه. وتعتبر نفسها أرفع قدراً بكثير من الممرضة.

هى المميَزة فى زيّها, وأدائها, والمهام التى تكلّف بها.

فهى إن عيّنت فى مستشفى عام, فمشرفة على قسم كبير، أو على غرفة العمليات. لكن المستشفيات العامة تكاد تخلو منهنّ تقريباً. إذْ تتخطّفهن المستشفيات الاستثمارية, ناهيك عن مستشفيات الخليج.

كنّ يحاولن ملاطفتى, رغبةً فى إلهائى عن الألم والأنين. فواحدة تقيس لى الحرارة، وأخرى تقرأ لى الضغط، وثالثة تسألنى عن اسمى, وعن حالتى.

حتى جاء نائب القسم, وثبّت لى القسطرة المعتادة، وأمرَ بإعطائى المحاليل عن طريق الوريد، ليتم غسْل الكليتيْن.

انطرح الألم عنى، وكففْتُ عن الصراخ والأنين، وبدأتُ أبادلهنّ الحديث، وأستجيبُ لودّهنّ المحبّب، وأنقّل عينى بينهنّ، فأراهنّ جميعاً جميلات، رقيقات، فأمتلئ بالتفاؤل والرضى.

انقضى اليوم فى الثرثرة والضحكات الخافتة، وأصبح سريرى نقطة التقاء. يذهبْن, ويجئْن.

كانت (سناء) أقربهنّ إلىّ, بجسدها القليل، وملامحها الدقيقة، ورقّتها المتناهية. تشعّب الكلام بيننا وتعمّق. وصار كلّ منّا يجد راحته ومتعته فى القرب من الآخر, يوماً بعد يوم. ربطتْ بيننا نظرات بقية المرضى المتواطئة, وابتسامات صاحباتها, كما لو كنّ يباركن تلك العلاقة الناشئة.

فى أحد الأيام، لم تتمكن (سناء) من قضاء وقت كاف معى، بسبب ضغط العمل, وتواجدها فى أماكن أخرى. وقبل أن ينتهى يوم العمل بقليل, جاءت لى خلسة، وأعطتنى (فردة حلق) ذهبية, وقالت:

– خلّيها معاك, وأنا هاعمل إنّها وقعت منى, وآجى بعد شوية أدوّر عليها.

بعد قليل عادت سناء, وحدها, بملابسها العادية, تسأل عن:

– فردة حلق شَبَهْ دى وقعتْ منى. ماحدّش شافها؟

وانشغل الجميع فى البحث والتنقيب. وانتقل الخبر إلى العنابر المجاورة, وأنا معهم بالطبع. ثم فاجأتهم أنا بالصياح:

– هىّ دى؟

أمضينا ساعتين كاملتين فى الحديث عن كل صغيرة وكبيرة. ثم فكرنا فى اللقاء خارج المستشفى.

– إزاى.

– ولا يهمّك. أنا متعوّد أنزل أغلب الأيام. أحضر ندوات، أو أقابل أصحابى ع القهوة, آخد سهرتى عادى، وارجع فى الآخر أبات فى المستشفى.

وهكذا صرنا نلتقى عقب انتهاء عملها، خارج المستشفى.

فى البداية كنا نكتفى بالجلوس على أى مصطبة حجرية, داخل حرم كلية الطب, القريبة من المستشفى. ننزوى جانباً، فى مكان غير مطروق. ونأخذ فى الكلام: الكلام الغزير، المتوتّر، الذى يفتّت المشاعر، ويشحذ الحواس.

كانت سناء كتلةً من المشاعر الخام المتأجّجة. كنت أحسّ بفيض هذه المشاعر الذى يكوّن حول جسدها الضئيل مجالاً مشعّاً، يشبه دوّامة صغيرة من الرياح الساخنة، والتى تلفحنى, فتهيّج حواسّى، ليتماس المجالان.

كان أسوأ ما فى الأمر هو انتصاب عضوى وبداخله القسطرة. يتمدّد عضوى ويبدأ فى ابتلاع القسطرة سنتيمتراً تلوَ سنتيمتر، بما يتكلّس عليها من إفرازات سابقة، تصنع نتوءات خشنة، تضاعف ما أحسّه من لذة وألم.

كانت القسطرة ترغمه على الالتواء, فيظلّ ينبض بعنف كى يستقيم، ولكنه لا يستطيع .

كنا نجلس متجاورَيْن، تفصلنا ملليمترات شائكة، تُومض فيها طوال الوقت شرارات احتكاك المجالين.

عندما وضعتُ يدى على يدها فجأة, للمرة الأولى، تملّكتها رجفة، وهمهمةٌ خافتة، وغابت عن الوعى للحظات. ثم سحبتْ يدها ببطء وعيناها تدمعان.

أخبرتنى أن ما يحدث لها الآن, يحدث للمرة الأولى. إذ أننى الرجل الأول فى حياتها. تعجبتُ .. كيف وهى المليحة، بل الجميلة، يحدث ألاّ تدخل فى علاقة من أى نوع حتى هذه السن؟

قالت: إنها شبّت على حبّ ابن عمّ لها, يكبرها بعدة سنوات، من بعيد. إلى أن خطفه الموت مبكراً, فانطوتْ على نفسها, ونفرتْ من كل ما يقرّبها من عالم الرجال، حتى شاء القدر, وقابلتْنى.

تكررتْ لقاءاتنا فى حرم كلية الطب, وخارج كلية الطب. صرنا نلتقى لنسير على الكورنيش، ونجلس فى كازينوهات البحر.

ظل تلامسُ يدينا هو أقصى ما نستطيع الإقدام عليه, من الأفعال التى تحدث بين عشاق الكورنيش. إلى أن تمكّنا من أن نسير متشابكىْ الأيدى, بدون زغللة فى العين، وخلخلة فى الأرجل. فقط احمرار الوجه اللافت للنظر.

ذات مرة، ونحن سائرين على الكورنيش، تجرأتُ وقبّلتُها فى خدّها، وحدث ماحدث فى المرة الأولى. كادتْ أن تنْدلق من بين يدىّ على الأرض، لولا أنى احتضنتُها بقوة، وسندتُها حتى سور الكورنيش، وأجلستُها عليه, حتى أفاقت محمرة الوجه، تنظر فى الأرض من خجلها الشديد.

استمرت لقاءاتنا بعد خروجى من المستشفى. وصارت تتأكد علاقتنا يوماً بعد يوم, وتفصح عن نفسها, بوصفها علاقة حُبْ.

بدأ قلقى هو الآخر ينمو يوماً بعد يوم. وبدأتُ أسائل نفسى: ماذا تريد بالضبط؟ أهى الرغبة وحدها؟. وتغذية إحساسك بالظفر بمزية أن تكون القاطف الأول, والوحيد, لثمار هذا الجسد؟ .. أم إنه الحب؟.

وهل استطعت التخلص تماماً من حب (عفاف) بهذه السرعة؟

أم أنك تحاول نسيان الحكاية القديمة, بحكاية جديدة ؟

ثم بدأت رحلة أشرف الخاطفة مع مرضه الأخير، وانخطفْتُ معه. تباعدت لقاءاتنا، وأمضيتُ أنا وأشرف فترة فى دسوق, كانت تأتينى خلالها خطاباتها الحزينة الحارة.

عندما احتُجز أشرف بقسم العلاج الإشعاعى بالدور الأرضى، كانت تأتى لزيارته كل يوم، وتمضى معظم الوقت معنا, ثم ترجع بيتها فى آخر النهار, حزينةً باكية.

مات أشرف، وأنا اكتأبت، وعزفتُ عن أى فعل يقود إلى البهجة. وطالت فترة مكوثى فى دسوق. وعدم استجابتى لطلبها المتكرر فى خطاباتها بأن ترانى. وأخيراً تحدد موعد, والتقينا بعد فترة طويلة.

كان اللقاءَ الأخير.

ركزتُ فيه جهدى كله, فى شرح وتفنيد الأسباب التى تجعل أمر استمرار علاقتنا، وانتهائها برباط دائم كالزواج، أمراً صعباً، بل ومستحيلاً. وأنه ليست لنا يدٌ ولا حيلةٌ فى دفع ذلك.

أذكر أننا كنا نجلس على دكّة حجرية, فى ميدان الخرطوم، وأنها بكتْ، وبعد قليل وقفتْ, وسلّمت علىّ، ثم استدارت لتذهبْ.

ظللتُ أنا جالساً مكانى، أسترجع ما قلتُه للتوّ، وأشاهدها وهى تسير, متعثرةً, وملمومةً على نفسها.

كدْتُ أبكى من التأثر، وفكّرت: إننى أرى الآن أكثر الكائنات بؤساً على ظهر الأرض. وأنها صنيعتى من الألف إلى الياء.

ماذا فعلتُ بسناء؟ وكيف ضيّعتُها منى ببلاهة, ولا مبالاة, هكذا؟.

كنت دائماً أردّد لنفسى مفلسفاً الأمر:

"إن ضعف سناء الأنثوى، كان أقوى من قدرتى على احتماله"

ولست واثقا الآن, من إمكان وجود معنى محدد، كنت أقصده من وراء قول هذه العبارة.

«د. محمد صفوت»

الأحد ٢٠/٨

١٠ مساء

كان د. مصطفى الديوانى هو الحبّة الأولى فى عنقود آخر, بدأ به ولم ينته، ويضم كل طبيب إنسان، ذكى، مثقف، متفان، متفوق علمياً، ومستعد لبذل الجهد المضنى لصالح مرضاه، أحببته, وصادقته, طوال حياتى.

لقد تكونتْ لدىّ بمرور السنوات, خبرة لا يستهان بها, فى فرز الأطباء. أستطيع بعد تبادل حوار قصير, إن لم يكن بمجرد النظر, الحدس, بل التيقّن, من نوعية الطبيب الذى أحادثه.

هناك بالطبع من هو بائسٌ, فقيرٌ, جاهلٌ، ضحلٌ، ضنينٌ بوقته وعواطفه وجهده.

ولكن أيضاً، دائماً يكون هناك النوع الآخر.. النقيض.

لقد أسعدنى حظى بلقاء ومعرفة ومصادقة عدد غير قليل من هذا النوع الأخير.

ما أكثر ما كانت أسئلتى واستفساراتى التى لا تنتهى, ورغبتى القوية فى الخوض فى أدق التفاصيل. وما أجمل ما كان من صبرهم, وحرصهم على إراحتى, بإجاباتهم الدقيقة الوافية الشارحة. ولم يكن أحدهم يجد أى غضاضة فى أن يصرّح بعدم استطاعته الإجابة على هذا السؤال أو ذاك. ويعدنى بأن يبحث فى الأمر. ولا يهدأ حتى يفتح كتبه ومراجعه, ليعرف إجابة السؤال الصعب. وفى اليوم التالى يكون جاهزا بإجابته الشافية.

نزلتُ مصر فى إحدى الإجازات الصيفية, قادماً من السعودية, حيث كنتُ أعمل مدرساً برفقة سهير, فى الفترة ما بين عام ٨٧, عقب زواجنا مباشرة وحتى عام ٩١.

كان بحوزتى ملف كبير, ووافٍ, عن حالتى, وتاريخ مرضى وتطوراته, ومزوّداً بتقرير وافٍ، كتبه صديقى د. جمال صبحى جلبى (السورى الجنسية) باللغة الإنجليزية, وترجمه إلى الألمانية. ليرسله لأقرباء وأصدقاء له, فى كل من ألمانيا وأمريكا. راجياً منهم أن يسألوا عن إمكانية علاج مثل هذه الحالة, وعن إمكانية زرع صمام صناعى, أو مثانة صناعية , ونسبة نجاح العملية, وتكلفتها المادية.

وكنتُ قد قطعتُ شوطاً فى طريق الحفاظ على البقية الباقية من الكليتين, اللتين دقّتا ناقوس الخطر, وأعلنَتا بوضوح, أنهما فى طريقهما إلى المصير المحتوم, إن لم تحدث معجزةٌ ما. ولأن زمن المعجزات ولىّ. فقد كان الشغل الشاغل للأطباء هو إطالة عمر الكليتين قليلاً, وتأجيل ساعة وصولها إلى هذا المصير المشؤوم قدر الإمكان .

لكننى كنت من ناحيتى متجاهلاً هذا المصير تماماً, ومنكراً إمكانية وقوعى فى براثنه. ولم أكفّ عن الأمل فى حدوث تلك المعجزة, حتى اللحظة الأخيرة.

تمّ اكتشاف الخطر الذى يحيق بالكليتين بمحض الصدفة:

كنت أسعى بعد انقضاء بضعة شهور لى فى المدينة, لاستخراج رخصة قيادة. وكان من بين الخطوات التى يجب إنجازها قبل استخراج الرخصة, أن يتبرع كل طالبِ للرخصة بنصف لتر من دمه. قاس لى الطبيب الضغط, كإجراء روتينى، لكنه توقف, وظهرت على وجهه علامات عدم التصديق, فأعاد القياس, ثم نادى على زميل له وأعطاه الجهاز, طالباً منه التأكّد. كان ضغط دمى مرتفعاً جداً (١٨٠ على ١٢٠) . تعجب الطبيب: كيف لم ألاحظ ارتفاع ضغطى من قبل, وحذرنى من تجاهل الأمر, ونصحنى أن أسرع بالذهاب لأخصائى, لمعرفة أسباب ذلك, وأخذ العلاج المناسب.

بدأتْ منذ تلك اللحظة معرفتى بالدكتور(جمال) وبدأنا سوياً مشوارنا الذى استمر أربع سنوات.

كان يعمل فى مستشفى الملك فهد بالمدينة. سخّر من أجلى إمكانات المستشفى الهائلة. أجرى لى مختلف التحاليل والأشعة, وبشكل دورى. وأجرى كل الفحوص الممكنة. وعرضنى على كل استشارى رفيع الشأن فى تخصصه.

كان تركيز الكرياتينين قد تخطّى حاجز الـ (٤ ملجم) فى الدم, والبولينا وصلت إلى (٧٠ ملجم) وفى هذا نذير شؤم بيّن. ولكى لا تزيد هذه الأرقام, كان يجب التدخل لتخفيف العبء الواقع على الكليتين, بالتخلص أولاً بأول من البول الذى يتجمع فى المثانة, وعدم إعطائه الفرصة للتراكم كى لا يمثل ضغطاً على الكلى.

كان يأتينى بكميات كبيرة من القساطر, التى أستخدمها بنفسى, ثلاث مرّات, ثم خمس مرّات فى اليوم. ولما كانت الأرقام تزداد ببطء .. ولكن بإصرار. نصح الاستشارى بتركيب قسطرة دائمة: (سوبرابيوبيك). تدخل للمثانة عن طريق اختراق جدار البطن من الخارج.

ظللْتُ أحمل هذه (السوبرابيوبيك) فى بطنى عاماً كاملا, وكانت النتيجة المؤسفة, أن الأرقام ظلّت مُصرّةً على الزيادة.

عدت من السعودية فى الإجازة, وعندى عزم على الذهاب إلى أستاذ فى المسالك البولية, من أساتذة القاهرة الكبار. رغبةً فى سماع رأى مختلف عن رأى د. ممدوح قريطم, ومدرسة الإسكندرية.

ترددتْ على سمعى عدة أسماء لامعة, لكننى ارتحتُ للذهاب للدكتور محمد صفوت (أستاذ الأساتذة) فى عيادته بباب اللوق.

العيادة مزدحمة, غرفة الكشف تُفضى إلى غرفة أخرى ملحقة بها, يفصلهما باب, ولها باب آخر يفتح على الصالة. يستقبل الدكتور المرضى الجدد فى حجرة الكشف. وفى الغرفة الأخرى, يستقبل الاستشارات (إعادة الكشف), والتى ينهيها سريعاً بعد أن يطمئن على سير العلاج.

عندما حان دورى, رأيت شيخاً مسنّاً قد تخطى الثمانين. ذكرنى بالدكتور(مصطفى), غير أن (د. صفوت) أسمر البشرة. رحّب بى, وطلب منى أن أبدأ فى

عرض مشكلتى. أشرت إلى الملف المتضخم الذى أحمله, وقلت باعتذار:

– الحقيقة يا دكتور أنا حكايتى طويلة, وأخشى إنها ممكن تاخد وقت كتير من وقت حضرتك.

شعر للتوّ أنه أمام حالة صعبة, فقام مستأذناً, ودخل الغرفة الأخرى, وأمضى بها ربع ساعة. ويبدو أنه انتهى من الاستشارات السريعة, وأجّل بقية المرضى, كى يتفرّغ لى.

عندما أتى كان باشّاً ومهتماً. نظر لى وهو يجلس على كرسيه:

– إحكيلى بقى يا سيدى الحكاية من طقطقْ, لسلامو عليكم. فبدأت فى سرد القصة التى أحفظها عن ظهر قلب, من البداية, مدعّما كلامى بصور أشعة, وتحاليل, ورسوم بيانية, وتقارير. كان يستوقفنى كل فترة ليسألنى عن تفصيلة ما, ويكتب فى ورقة أمامه, ينظر فى الأشعة ويكتب, وفى التحاليل والرسوم ويكتب. وأخيراً, وبعد أن أمضينا ساعة أو يزيد. بان عليه الهمّ والانشغال, ثم نظر لى واجماً وهو يقول:

– بص يا إبنى: إنت حالتك مش بسيطة, وانا ماقدرش أقولك رأيى بسرعة كده. أنا الحقيقة متبرجل, إنت تسيبلى الملف ده, وتيجى بكرة, أكون سهرت الليلة عليه, وفكّرت فى الرأى اللى هاقولهولك.

وعدت إليه فى اليوم التالى, فى غاية التوتر, والقلق, والتأرجح بين الأمل فى أن يفاجئنى باقتراح لحل المشكلة, وبين اليأس من حدوث ذلك.

كان قد قرأ الملف جيداً, وفكّر كثيراً. وكان يبدو مشدوداً ومتجهماً. ويبدو أنه لاحظ علىّ أننى لا أقدّر العواقب الوخيمة حقّ قدرها. فعلا صوتُه وهو ينذرنى بقرب حدوث الفشل الكلوى.

وأذكر أنه صاح قائلاً :

– إنت جايلى تشتكى من برغوت مضايقك، بينما أنا شايف أسد, هايلتهمك ويلتهمنى.

(فكرت كثيراً فيما بعد, لماذا يفكر الأسد فى التهامه هو الآخر معى؟ ولكنى أرجعت ذلك إلى انفعاله وقتها لا أكثر).

طرحَ علىّ فكرة تركيب قسطرة دائمة فى جدار البطن كحلّ أخير. لكننى أسرعتُ بإخباره أننى سبق أن ركّبتها لمدة عام كامل, ولم يحدث أى تحسّن, بل على العكس, ساءت الأمور, وخلّفتْ صديداً فى البول لا يريد أن ينتهى. فردّ على مكفهرّ الوجه:

– لقد ألقمْتَنى حجراً

(أذكر أن جملته تلك قد أعجبتنى كثيراً, وأننى طربتُ لها, وظللتُ أردّدها لنفسى وقتاً طويلاً).

ثم أخبرنى أنه لا يجد حلاً آخر, سوى الرجوع للرأى القديم القائل بقطع الصمام الخارجى تماماً, وإحداث سلس البول الدائم. لكننى كررتُ رفضى للفكرة, وقلت كلاماً لم أعد أذكره, ألمحتُ فيه إلى أننى متّخذٌ قرارى, بأننى سأودّع الحياة مختاراً, عندما يحين وقت هذا الفشل القادم. فإذا به يهبّ واقفاً وينحنى على المكتب صارخاً فىّ.

– إيه الكلام الفارغ وشغل العيال ده؟ إنت فاكر نفسك مين؟ إنت هاتعدّل فى شغل ربنا؟ بطّل حماقة يا إبنى وإياك تفكر فى الكلام ده تانى.

خرجت من عند (د. محمد صفوت) لا أكاد أرى أمامى، يائساً تماماً من إمكان وجود أى حلّ. ومسلّماً أمرى لذلك المصير الغامض, الذى يربض لى متربّصاً فى أحد منعطفات المستقبل.

لكننى فى نفس الوقت, كنت ممتلئاً بالخجل من ضعفى المزرى, وأفكارى السخيفة الرعناء, حول الهروب من مواجهة ذلك بالانتحار.

ثم جاء الفشل الكلوى أخيراً، واكتشفتُ أنا أن ذلك الأسد المرعب, الذى أمضيتُ عمراً كاملاً أتهيّبُ لقائه, ما هو إلا قطٌّ أليف, يرقد فى حجرى طوال اثنى عشر عاماً, بينما أنا أمشط شعره الغزير بأصابعى.

لكنه كعادة القطط, يعنّ له أحياناً أن يلهوَ مع صاحبه, فيخمشنى بأظافره, مدمياً وجهى. ثم يعود للرقاد فى حِجرى بلا أدنى شعور بالذنب.

آخر فصل

الاثنين ٤/٩/٢٠٠٦

٦ صباحا

كان أمس (الأحد ٣/٩) هو عيد ميلاد سهير. حرصْتُ على أن أظلّ متذكّراً, وأن أفاجئها بفعل شيء محبّبٍ لها.

كنتُ فى غرفتى عندما فتحتْ الباب ودخلتْ، عائدةً من الشغل. لبثتُ فى مكانى لحظات، ثم خرجتُ إلى الصالة، لأجدها واقفة ترنو إلى باقة الزهور الجميلة التى وضعتها لها على السفرة. كانت متأثرة للغاية. لمعتْ عيناها بالدموع.

ذهبتُ إليها وقبلتُها قائلاً:

– كل سنة وانتِ طيبة يا سوسكا.

– وانت طيب يا أسّوم. بس إيه الورد الجميل قوى ده؟.

– نقيتهولك واحدة واحدة، وكنت واثق إنه هايعجبك، وسألت الراجل عن اسم كل زهرة عشان أقولك، بس كنت بانساه بمجرد مابيقوله.

كانت فى غاية السعادة. (هكذا هى سهير دائماً.. تُرضيها تماماً أبسطُ الأشياء)

رفضتْ اقتراحاتى بإقامة حفلة صغيرة:

– نجيب توتارية, ونِدعى (مجاهد وسهام والأولاد), أو (محمد وسميّة ولما وصبا). ياإما نروح سينما, نضحك على أىّ فيلم تافه.

لكنها فضّلت تمضية الوقت سوياً فى البيت, بدون فعل شىء.

ثم اتصل (محمد مرسال) وردّت سهير. وتحدّث حول رغبته فى زيارتنا هو و(ميساء), عروسه اللبنانية الجميلة, وأى المواعيد يناسبنا. وسمعتُ سهير تقول:

– ماتيجو النهاردة.

وجاءا, وأمضينا ليلة جميلة. قرأت لهما بعضاً من فصول الكتاب، ثم ذهبا, على وعدٍ بقيامنا بردّ هذه الزيارة قريباً.

دخلتُ المطبخ فى التوّ, وبلعتُ قرص (فيجوريكس ٥٠ ملجم) وقلتُ لنفسى: فلأختبرْ مصداقية الصيدلى فى ترشيحه لى هذا الدواء بالتحديد. وتمددتُ على السرير, مشاهداً أحدَ البرامج الغنائية.

بعد مرور نصف ساعة، بدأتْ تتأكد ثقتى فى الصيدلى وخبرته.

ناديتُ عليها, كانت فى المطبخ, تنتهى من غسيل الأطباق والأكواب, اللتى خلّفتها الزيارة.

مرّ وقت آخر، ناديتها ثانية:

– إيه يا سهير .. بتعملى إيه كلّ ده؟

– خلاص واللهى، فاضل بس آخد دشّ سريع.

عندما انتهت من حمّامها، ولدى دخولها الغرفة، بادرتُها قائلاً:

– بقى ده اسمه كلام؟.. طبْ قوليلى بزمّتك أعمل إيه أكتر من كده؟.. بقالى ساعتين جاهز ومستنيكى, وانتى عمّالة تضيّعى فى الوقت.

– ساعتين يا نصاب؟

– خلاص بقى ماعدش ييجى منّه.. تصبحى على خير.

ثم صحوت فى الخامسة والنصف, إثر خشخشة انتهائها من صلاة الفجر, واستعدادها لمعاودة النوم. لأجد نفسى جاهزاً تماماً للاحتفال بعيد ميلاد سهير من جديد. الآن، وهنا. احتفالاً يليق بيوم هامّ كهذا.

* * *

أوشكتُ الآن على الانتهاء من الكتاب, أشعر بذلك، إن لم أكن أتمنّاه. بل إنى لأرجو أن يكون الفصل الذى أكتبه الآن, هو آخر الفصول.

لقد تغاضيتُ عن أشياء كثيرة, كنت أخطط للكتابة عنها. مازالت القائمة التى كتبتُها, وأعدتُ كتابتها مراراً، تضم مواضيع وأسماء, لم أشطبْ عليها بالقلم الرصاص بعد. والحقيقة أن أغلب الفصول التى كتبتُها جاءت من خارج هذه القائمة :

أبدأ الكتابة عن أمرٍ من الأمور, لأجدنى منجذباً للكتابة عن أمر آخرَ تماماً.

نصحنى معظم الأصدقاء: لا تتعجلْ الانتهاء من الكتاب. انتهِ أولاً من كتابة كل ما يرد على ذهنك, بلا تصنيفٍ أو فرز.

لكننى لم أفعل. بمجرد أن اتضح لى أن المرض هو العمود الفقرى الذى ينمو حوله الكتاب فصلاً فصلاً، صرتُ أطرح عنى كل ما هو بعيد عن السياق. وأركّز فقط فى مشاهد حياتى التى ترتبط بهذا المحور بطريقة أو بأخرى.

ما أشدّ ما كانت رغبتى فى الكتابة عن جوانبَ وشخصياتٍ, وتفاصيلَ من حياتى، ليست لها علاقة وثيقة بالمرض. لكننى كبتُّ تلك الرغبة مراراً, مؤجلاً إياها إلى لحظة أخرى قادمة.

* * *

مضى الآن أربعة أشهر ونصف, على شروعى فى الكتابة.

عندما أتت إيمان فى أوائل مايو، كان قد مضى أسبوعان على تلك البداية. عندما التقينا، قرأت عليها ما كتبته. كان مفاجأةَ حقيقيةَ لها. رتّبنا للقاء آخر, فى بيتها أيضاً, بحيث ينضم إلينا مجاهد الطيب. أتى مجاهد, ومعه فولُ الصباح الشهىّ (من إحدى عربات الفول الواقفة على إحدى النواصى). كانت هناك فصولٌ جديدة. قرأتُ عليهما من البداية. ثم تكرّر هذا اللقاء مرة أخرى, فى حضور مجاهد أيضا والفول الصباحى المعتاد. قرأت لهما آخر ماكتبت, وتبادلنا الكثير من الآراء والملاحظات.

تنبأت إيمان بأننى سأنتهى من الكتاب قبل عودتها إلى كندا (أى قبل انقضاء ثلاثة أشهر). حسبتُ كلامها على سبيل التشجيع لا أكثر. لكنها ذكّرتنى ليلة

سفرها: ألم أقلْ لك؟ (كنت قد انتهيت من الكتاب تقريباً. لم يكن يتبقّى سوى فصلين أو ثلاثة).

* * *

ذهبتُ إلى (فاطمة قنديل) فى بيتها بمصر الجديدة, أنا و(صفاء فتحى)، ناوياً قراءة بعض الفصول. بدأنا سهرتنا فى منتصف الليل. قرأتُ الفصل الأول, ورغبتُ أن أقفز عدة صفحات، لكنهما اعترضتا بقوة:

– اقرا بالترتيب.

انتهيتُ من القراءة فى الرابعة فجراً. وظللْنا نتحدث عما قرأتُ حتى الثامنة، ثم عدتُ إلى بيتى.

قالت لى كل من فاطمة وصفاء: إنهما يعرفاننى الآن من جديد, وأنهما اكتشفتا الآن, أن الذى عرفاه طوال السنوات السابقة, لم يكن إلا صورةً باهتةً عنّى.

* * *

لم يتبق أحد من أصدقائى المقربين لم أقرأ عليه أجزاءً من كتابى. وهناك من أقرأ عليهم كل الذى أنتهى من كتابته أولاً بأول.

زاع صيتُ الكتاب، وصرتُ ألتقى بالكثيرين الذين وصلهم خبره، ويرغبون فى الاستماع إلى بعض الفصول. وأنا كنتُ ومازلتُ أسعدُ بذلك. بل إننى أنزل أغلب الأيام وفى يدى كيسٌ بلاستيكىّ، يضم الثلاثة كشاكيل معاً. مع قلم الرصاص ال (٠.٧) والأستيكة. تحسّباً لاقتناص سطر, أو فقرة شاردة, قبل أن تتبخّر.

كانت سهير, ومازالت, أول من يستمع إلى كل فصل جديد بمجرد انتهائى منه. (أحياناً أخدعها وأقرأه

بالتليفون على حمدى أولاً).

إننى سعيدٌ سعادة خاصة, باستجابة سهير لهذه الكتابة. لأول مرة أجدها متأثرة بما أكتب. ولا تكفّ عن الإدلاء بآرائها التى أوليها كلّ اهتمام. مع ثقتى التى تزداد فى حساسيتها القوية, وذوقها الصارم.

لم يفلحْ الشعر الذى كنتُ أكتبه سابقاً, فى إثارة أفكارها من قبل. ولم تجد نفسها مضطرة لذلك فى يوم من الأيام.

* * *

منذ بضعة أيام ونحن نمضى السهرة عند أحمد طه, تطلّع حمدى إلىّ طويلاً ثم قال.

– واللهى إنت متألق يا أُسْ. أنا باتعجّب. ولو كان حدّ حكالى ماكنتِش صدّقت. بس أنا شُفْت بعينى: إزّاى الكتابة، والكتابة لوحدها، تقدر تنقذ إنسان من الموت، وتقلب حياته ١٨٠ درجة؟

إنت كنت بتموت يا أسامة. وأنا شخصياً كنت منتظر موتك بين يوم وليلة، وكنت دايماً أقول لنفسى: إن فيه اتنين عزاز عليّا, ماشين بإصرار, وبسرعة, ناحية الموت، وأنا عاجز عن فعل شىء، ومش عارف حياتى هايبقى شكلها إيه بعد ما يموتوا!

(كان بالطبع يقصدنى أنا وأمّه).

* * *

فى إحدى سهراتنا القريبة عند هاشم. وإثْر كلامٍ دارَ بيننا عن الكتاب, وقرب انتهائى منه، فاجأنى حمدى قائلاً:

– بصْ يا أسامه: بعد الكتاب ده، تقدر تعمل اللى انت عايزه بقى.

– ..... تقصد يعنى, إن أنا أقدر أموت دلوقتى وانا مرتاح؟

– عاوز تموت.. موت .. إنت حرّ.

(وجعتْنى الملاحظة، بقدر ما ملأتْنى بالزهو).

– بس أنا بقى قاعدلّك يا حمدى يابو جْليّل.

والغِى ياحبيبى فكرة موتى دى من حُسبانك نهائياً.

القاهرة.

من ٢٠/٤/٢٠٠٦

وحتى ٤/٩/٢٠٠٦

بمثابة ذيل

١– داليا ٢

الجمعة ١/١٢/٢٠٠٦

١٢ ظهراً: مقهى الحرية

– آلووه.

– إزيك يا داليا؟

– أهلاااان, إزيك يا أوساااامة؟

– ماشى الحال يا داليا. إزيك انتى، وازى رفاعى وفرح؟

– الحمد للّه, كويسين، وسهير ازيها؟

– كويسة قوى، هو صحيح الوحدة اتقفلت تانى يا داليا؟

– وعرفت إزاى؟

– أحمد قاللى.

– ياسيدى الدكتورة إياها اللى قفلتها المرة اللى فاتت

باين عليها مستقصدانا، قال إيه. لازم يكون للوحدة مدخل خاص بيها غير مدخل العمارة.

– دى تلكيكة بقى.

– طبعاً تلكيكة. عموماً هى طالعة معاش خلاص, والدكتور حسن هايقدم طلب جديد, ولو اتلكّكو تانى على حكاية المدخل دى, بيقول أنه شاف شقتين قصاد بعض فى إمبابة, هاياخدهم ويعملهم وحدة جديدة.

– وده هايحصل امتى؟

– على طول إنشاء اللّه. إنت بتغسل فين دلوقت؟

– فى الشباب ٢ زى منّا.

– لسه ماتخانقتش معاهم؟

– كل يوم خناقة يا داليا، أنا خلاص كرهت الوحدة دى, ونفسى أنقل وحدة ثانية بأسرع وقت، بس الكسل هو اللى مأخرنى. بقى لى دلوقتى سنة كاملة معاهم، ولسه حاسس أنى غريب، ومش قادر أخد ع المكان. انتو مش هاتجيبوا مكنة فريزينياس بقى؟

– هانجيب واللهى. أنا أقنعت الدكتور حسن خلاص، وهوّا ناوى يجيب واحدة جديدة نوفى قريّب.

– أول ما تجيبوها وتفتحوا الوحدة تانى كلمينى، وانا هاحوّل عندكو تانى يوم على طول.

– ياريت يا أسامة, والنبى انت واحشنى. وصلتنى رسالتك فى العيد, واتصلت بيكم. كان مشغول على

طول، وبعدين كسّلت بقى.

- اشتريتى أخبار الأدب؟

- لأ.. ليه؟

- اللّه؟.. أنا بعتّلك رسالة انتى والدكتورة هالة. وقلتلك اشترى أخبار الأدب. الكتاب اللى قلتلك عليه.

نشروا منه جزء كبير, وفيه فصل كامل بإسمك.

- والنبى جدّ؟ طب هىّ فين أخبار الأدب دى؟

- هاجيبلك نسخة يا داليا. دا كل الناس اللى قروا بيسألوا عنك ونفسهم يشوفوكى.

- يا حلااوة. طب والنبى تجيبهالى عشان اتنطّط بيها شوية ع البنات أصحابى.

- هاجيبهالك، هاجيبهالك. والدكتورة هالة أخبارها إيه؟

- كويسة قوى، والنبى أنا فرحانة انّى سمعت صوتك.

- اسكتى يا داليا. مش العملية وقفت.

- لا يا شيخ.. انت بتهزر.. وقفت امتى يا أسامة؟

- صحيت امبارح م النوم. لقيت الوريد متليّف وناشف زى الحجر ومافيش فيه أى نبض.

- يمكن ضعفت شوية بس.

- حطيت السماعة ماسمعتش حاجة, والنهاردة فُتّ ع الوحدة, وخليّت أحمد يتأكد. حطّ إبره فيها ماجابتش دم خالص.

- طب وناوى تعمل إيه؟

- ولا حاجة. حاروح الصبح زى الشاطر على صيدناوى, أركب قسطرة ف رقبتى كالعادة, عشان أغسل منها بكرة. بس ياريت يلاقوا وريد سالك يركبوها فيه. وبعدين أبقى أشوف بقى موضوع العملية الجديدة.

- وهاتعملها فين المرّة دى؟

- لسه ماقرّرتش. الخوف الاّ مايلاقوش مكان فى دراعى, ويضطروا يركبّولى وريد صناعى فى الفخد, زى عم الشحات. ربنا يستر.

- اسمع يا أسامة: لسه رفاعى قايلى امبارح أن فيه دكتور فى القصر العينى عمل عملية كبيرة قوى لواحد هناك, كان دراعه بايظ خالص. لدرجة أنهم كانوا هايبتروهوله. تصور الدكتور شال جلطة بطول دراعه؟ وعمل له عملية ناجحة, والراجل هايرجع يغسل من دراعه تانى.

- عملها فى القصر العينى نفسه؟

- أيوه.. إنت فى البيت؟

- لا أنا فى الشارع.

- طب هاترجع امتى؟ أنا هاسأل, واعرفلك الدكتور ده بيروح يوم إيه؟ وازاى تقابله، واردّ عليك.

- خلاص هاتصل أنا بيكى بالليل.

- ماشى.. أكون سألتلك, وعرفت كل التفاصيل.

- مايحرمنيش منك يا داليا.

- ياخبر.. ماتقولش كده، والنبى انت غمّتنى قوى, بس إنشاء اللّه ربنا هايحلّها.

- ماشى يا داليا، نتكلم بالليل.

– ماشى، سلمى على سهير قوى والنبى.

– مع السلامة.

٢– سبعة أيام

الجمعة ٨/١٢/٢٠٠٦

١٢.٥٠ ظهراً مقهى الحرية

السبت ٢/١٢

اليوم ميعاد غسيلى. العملية متوقفة ولم أركب القسطرة بعد. يجب أن أذهب إلى صيدناوى لكى يركب لى د. جمال روفائيل قسطرة أغسل منها.

سهير فى أجازة، تنتظر أم سيد لتنظيف الشقة. أصرّت على مجيئها معى. أتت أم سيد فى الثامنة. طلبت منها سهير أن تبدأ فى العمل وحدها وأنها ستغيب عنها لعدة ساعات، لكن أم سيد رفضت. وأجلت التنظيف للجمعة القادمة. ذهبنا أنا وسهير إلى صيدناوى. صعدنا مباشرة لغرفة العمليات فى الدور الثالث، وطلبت مقابلة د. جمال:

– إيه راجل أنت فين؟..محدش شافك من زمان.

– سنتين يا دكتور، العملية كانت ماشية زى الفل، وقفت من يومين, وعاوز أعمل قسطرة.

ثم أعطيته تقرير الأشعة الدوبلكس الأخير الذى يقول أن الأوردة الرئيسية فى الصدر والرقبة مسدودة.

– ماتخليك لبكرة أحسن، يكون الدكتور عادل إلهامى استشارى الأوعية موجود.

– أنا لازم أغسل النهاردة، وبكرة ماضمنش ألاقى مكان فى الوحدة, وماقدرش استنى من غير غسيل للاتنين.

- طيب انزل اعمل إجراءات الدخول لعمليات اليوم الواحد وتعالالى.

أنهت سهير الإجراءات المملّة, وجلستُ أنا أدخن فى انتظارها. ودخلت غرفة العمليات أخيراً ثم خرجت أزكّ قليلاً بقسطرة فى أعلى فخذى, بالقرب من مشعرى. وتوجهت إلى الوحدة، بعد أن أنزلت سهير فى أول شارع فيصل, لتأخذ ميكروباص إلى البيت، وبعد أن اتفقنا أن نأكل اليوم فرخة بلدى محشية.

فى الوحدة. قالت عطاء:

- ورينى العملية كده.

- العملية واقفة.

- بس ورّيهالى.

وضعت أصابعها على العملية نفسها:

- العملية شغالة اهى، مين قالك أنها واقفة؟

ثم رشقت أبرة بخفة فأتت بدم شريانى فاتح ينبض بقوة. ورشقت إبرة أخرى فى مكان آخر فخرج دم شريانى فاتح أيضاً. وغسلتُ يومها من العملية, ولم أستخدم القسطرة. رفض أحمد نزع القسطرة بعد التقفيل:

- خليها غسلة و الا غسلتين كمان, لغاية مانطّمّن ع العملية, محدش ضامن.

و خرجت سعيداً.

الأحد ٣/١٢

ذهبت فى الصباح إلى صبدناوى لأتأكد أن العملية لم تتوقف بالفعل, وهل أنزع القسطرة وأستمر فى الغسيل من العملية؟

وضع الدكتور عادل إلهامى يده على العملية وهز رأسه قائلاً:

– العملية واقفة.

– دنا غسلت منها امبارح, وكانت الغسلة كويسة بدون مشاكل.

– دول حطّولك الإبرة فى الشريان نفسه, وده خطر. إوعى تخليهم يعملوا كده تانى. هابيوظولك الشريان, وتتلخبط الدورة الدموية فى دراعك.

الاثنين ٤/١٢

ذهبت إلى العيادة الخارجية بالقصر العينى للقاء د. أحمد البتانونى, الجراح الذى دلّتنى عليه داليا. وجدتُ بعض صغار الأطباء. طلب منى أحدهم عمل أشعة دوبلكس على الذراعين أولاً.

خرجت من هناك وتوجهت إلى الوحدة لأغسل فى ميعادى. غسلت ساعة بالكاد, تخللها حدوث صكشن عدة مرات. وتجلط الدم فى الفلتر أكثر من مرة, ليعيد أحمد تمريره بالهيبارين والمحلول حتى يعود الى نقائه. فى آخر مرة أرجع لى الدم ورفض إكمال الغسيل, والمحاولة مع القسطرة مرة أخرى. غضبت, وطلبت منه أن يظل يحاول, فليس أمامه حل آخر. رفض وقال:

– أنا حاولت بما فيه الكفاية.. قدامك الدكتور, خليه يجرّب. قلت له:

- إنت عارف كويس أن الدكتور ماعندوش خبرة بحاجة, وإن انت الوحيد هنا اللى تعرف تعمل ده, لكنه كرر امتناعه قائلاً:

- إنت يا أستاذ أسامة عاوزلك ممرض خاص يقعد بيك, وأنا عندى سبعة تانين غيرك.

- خلاص هابقى أأجر ممرض ييجى معايا المرة الجاية. أنا عمرى ماشفت كده. وأول مرة ممرض يعمل معايا اللى انت بتعمله ده. ثم طلبت من الدكتور أن يتصل بالدكتور عباس, الاستشارى المشرف على الوحدة, شارحاً له الأمر.

طلب الدكتور عباس من أحمد معاودة المحاولة, وتسليك القسطرة (بالجايد واير) لكن أحمد نبّهنى أن ذلك الجايد وإير ليس معقماً, وسبق استخدامه أكثر من مرة, مع أكثر من مريض. فرفضت. ثم جرب القسطرة ثانية فانطلق الدم جارياً فى البداية, ثم مالبث أن حدث الصكشن ثانيةً وتجلّط الدم فى الفلتر. قلت له غاضباً:

- خلاص, رجّعلى الدم, وقفللّى. وقلت أيضاً بنرفزة وبصوت عال:

- أنا خلاص زهقت من الوحدة دى. البيه قاعد ع الكرسى ومكسّل يحاول معايا تانى. أنا هانقل وحدة تانية بكرة. عشان ارتاح منكم, وترتاحوا منى. ثم صعدتُ على الميزان لأفاجأ بأننى مازلت زائداً أربعة كيلوجرامات, كما دخلت. وأن غثيان البولينا مازل يطفح من جوفى ويعكر مزاجى.

فى المساء اتصلت بأحمد زميلى القديم فى وحدة الزمالك, والذى اتنقل هو وأنور وعم بيومى ومدام إستر إلى وحدة جديدة بشارع سوريا. وطلبت منه أن يسأل لى عن مكان عندهم, بشرط أن أغسل باى كارب, وعلى مكنة فريزينياس. لكنه عاود الاتصال بى معتذراً, لعدم وجود باى كارب فى الوحدة. وعرفت منه أيضاً أن أنور قد مات منذ ساعات, فى نفس اليوم الاثنين ٤/١٢ وهو يغسل.

الثلاثاء ٥/١٢

ذهبت فى الصباح إلى هيئة التأمين الصحى بالجيزة لمقابلة د. إحسان, مديرة الخدمات الطبية. بمجرد رؤيتى سألتنى:

– ها؟ مستريح فى الشباب؟؟

– لأ مش مستريح, وجاى لحضرتك عشان أحول مكان تانى.

– أنا هاوديك مكان ممتاز, فى برج الأطباء, اللى ف عبد المنعم رياض. فتذكرت أنها قد اقترحت علىّ المكان نفسه منذ عام, لكنى فضلت عليه الشباب٢, لقربه من بيتى, ولأننى أدرك أننى سأتعب كثيراً فى البحث عن مكان لركن العربية بجوار البرج. وأثنت كثيراً على المكان, ونظافته, ونوعية المكن والفلاتر, وأعطتنى خطاب التحويل.

خرجت من عندها متوجهاً إلى برج الأطباء. صعدت إلى الدور الـ ١٣, حيث مركز الدكتور عمرو عياد للغسيل الكلوى, وأعطيتهم الخطاب, فرحبوا بى, وطلبوا منى

إحضار آخر تحليل فيروسات: بى, وسى, والإيدز. واتصلوا بعلاء الدين, رئيس الممرضين, لتحديد موعد لى, وأخذت موعداً فى نفس اليوم فى الثامنة مساءاً.

خرجت منشرحاً بعد أن ألقيت نظرة سريعة على صالة الغسيل, ورأيت المكن بنوعيه: فريزينياس الألمانى, ونبرو اليابانى. وأحصيت ١٤ سريراً صغيراً فى الصالة, وأكثر من ٤ ممرضين, وثلاثة عمال, وطبيب.

ثم توجهت إلى غرفة العمليات بصيدناوى. كان د. جمال روفائيل فى إجازة, لكنه كان موجوداً لحضور اجتماع, مرتدياً بدلةً كاملة, وربطة عنق. أخبرته أن القسطرة انسدت.

- طيب روح انت خلّص إجراءات الدخول, أكون انا خلّصت الاجتماع, ونتقابل هنا بعد ساعة.

عدت إلى غرفة العمليات, وخلعت كل ملابسى, مستبقيا فانلتى الداخلية, وارتديت الثوب الورقى الأزرق المعقم, المفتوح من الخلف, واضطجعت على السرير, منتظراً, أتصفح جريدة القاهرة. جاءت د. ثناء, طبيبة التخدير المناوبة, وأبدت استعدادها لتركيب القسطرة. لكننى أبلغتها أن الدكتور جمال وعدنى بذلك, وأننى فى انتظاره.

جاء أخيراً, واعتذر عن التأخر, ثم قام بنزع القسطرة القديمة المسدودة, وركب أخرى جديدة فى نفس المكان.

خرجت من المستشفى فى الثانية والنصف متوجهاً إلى الشباب ٢. لكن أيمن, المدير المسؤول, لم

يكن موجوداً. اتصلت به, وأخبرته أنى أريد الحصول على آخر تحليل فيروسات. سألنى عن السبب, أخبرته أننى انتقلت إلى مكان آخر, ولابد من رؤية آخر تحليل فيروسات. فقال:

- التحاليل فى مكتبى والمفتاح معايا.

وأنا متأكد أنه لا يوجد أى تحاليل فى مكتبه هذا, وأنهم اكتفوا بالتحليل الذى أحضرته معى منذ عام. بالرغم من أنى غسلت فى أماكن أخرى, فى الإسكندرية, ودسوق, ومرسى مطروح, خلال العام. لكنه نصحنى بأن أطلب من الدكتور الموجود كتابة ما يشبه الإقرار من المستشفى, بأن دمى يخلو من أى أثر لفيروس بى والإيدز. وأننى فقط أحمل سى. وأن يكون ذلك من واقع آخر تحليل:

- واختار انت يا سيدى التاريخ اللى يعجبك, وماتنساش تخليه يختمهولك بختم المستشفى.

فى الثامنة مساءاً توجهت إلى وحدتى الجديدة ببرج الأطباء, وبحوزتى إقرار المستشفى, لكنهم لم يقتنعوا به, وطلبو منى إجراء تحليل آخر فى معمل خاص بهم فى نفس البرج, وعلى حسابى الخاص. وافقت, ونزلت إلى المعمل فى الدور السابع. أخذوا العينة, وصعدت منتظراً النتيجة.

تأخرت النتيجة حتى العاشرة, فاقترح الطبيب أن أؤجل الغسيل للغد لأنهم يغلقون المركز فى الثانيةعشرة, حتى آخذ وقتى كاملاً. واتصلوا بعلاء الدين, فحدد لى موعداً فى السادسة من صباح الغد.

الأربعاء ٦/١٢

غسلت غسلتى الأولى بوحدتى الجديدة, فى شفت الصباح المميز. وتعرفت على علاء الدين, الممرض الخبير. بمجرد رؤيته أحسست بالطمأنينة والانشراح. شخصية قوية. يسيطر على كل صغيرة وكبيرة فى المكان. ينظم كل المواعيد لكل المرضى, فى أربع شفتات (حوالى ١٠٠ مريض). هو الذى يشرف أيضاً على صيانة المكن, ويصلح الأعطال.

وضع العامل لى فلتر هايديلينا. نظرت أنا حولى فوجدت أن الجميع يغسلون بفلاتر فريزيناس f٥و f٦ و f٨. فطلبت منه إحضار فلتر f٦, فقال: حسب ما يقول الأستاذ علاء.

وجاء علاء أخيراً.

- أهلا يا أستاذ أسامة طلباتك إيه بقى يا سيدى؟

- أولا أنا باغسل باى كارب. ودمى سريع التجلط. ولازم يتمرر شوية بالهيبارين قبل الغسيل. وبعدين أنا زايد أكثر من ٦ كيلو. والهايديلينا ده مش هايستحمل السحب. والدم هايتجلط فى أقل من ساعة.

- بس أحب أوضحلك نقطة: الناس دى معظمها قومسيون طبى بيدفعوا فرق جلسة ٢٠جنيه عشان الفلتر. أما التأمين الصحى اللى زى حضرتك, فلهم فلتر واحد f٦ فى الأسبوع. هدية من الدكتور عمرو.

- طيب يا سيدى, تاهت ولقيناها. إغسل لى المرة دى بفلتر f٦ وبعدين يحلها ربنا. فاقتنع, واستبدل الفلتر.

أعطانى علاء مواعيدى فى الشفت الأخير, فى الثامنة مساء, أيام الأحد والثلاثاء والخميس, وأن موعدى القادم يوم الأحد.

– ماقدرش استنى من النهاردة ليوم الحد. أربع تيام كتير. الجواب بادىء من امبارح التلات. والغسلة دى كان المفروض أغسلها امبارح. يبقى ميعادى الجاى بكرة, الخميس. كده يبقى معقول. فوافق أيضاً. وأبديت له رغبتى فى المجئ فى شفت الصباح:

– عشان ألاقى مكان أركن فيه, وعشان كمان تكون انت موجود, وتركّبلى بنفسك. فوعدنى بتحقيق ذلك قريباً.

الخميس ٧/١٢

أنا سعيد بوحدتى الجديدة. اكتشفت منذ اللحظة الأولى أنها مكانى الذى أبحث عنه. يكفى وجود ممرض بخبرة وشخصية علاء. بقية الممرضين والممرضات ليسوا سيئين. العمال ظرفاء, ومتفانين. المرضى خفاف الظل, ودائمى الرغى, وتبادل القفشات, مع الممرضين والعمال, ومع بعضهم البعض.

تحدثت مدام مارى عن كلبها الذى تتركه وحيداً بالبيت, وتأتى بصحبة زوجها. وأنه يظل مكتئباًو رافضاً الأكل لحين عودتها, وأنه يأكل اللحم والمورتاديلاّ كل يوم. وأن الكلاب أحسن من البنى آدمين. وهنا اعترض مصطفى العامل:

– مافيش حاجة اسمها الكلاب أحسن من البنى آدم يا مدام. فرد عليه أحد المرضى:

- إنت بتاكل لحمة كام مرة فى الأسبوع يا مصطفى؟

- مرتين.

- إنت كدّاب. ومع ذلك كلب مدام مارى بياكل لحمة سبع مرات فى الأسبوع, يبقى فين الأحسن فيكم؟

واستمرت التعليقات والإفيهات والقفشات تتوالى طوال ساعة كاملة. خصوصاً بعد أن فجرت مدام مارى القنبلة, عندما أبلغتهم أن الكلب يعانى من الاكتئاب, وأنها ذهبت به إلى الطبيب, الذى نصحها بتمضية وقت أطول معه, والخروج به من البيت للتريض بقدر ما تستطيع.

الجمعة ٨/١٢/٢٠٠٦

سأذهب غداً إلى الدكتور خالد الهنداوى فى عيادة الكوثر. أتمنى أن يجد المكان المتبقى فى ذراعى الأيمن, تحت إبطى, صالحاً لعملية جديدة (زرع وريد), كحل أخير, قبل اللجوء للوريد الصناعى فى الفخذ. وليتورّم وجهى ما شاء له التورّم. فلقد اعتدتُ ذلك.

لكننى الآن، والآن فقط, أعيد التفكير بجدية فى عملية زرع كلية جديدة, وإنهاء كل مشاكل الغسيل للأبد.

كنت طوال الـ ١٢ سنة الفائتة استبشع فكرة المثانة الصناعية, والخرطوم الناتئ من البطن. بالإضافة إلى مخاوف التلوث ومشاكله. لكننى الآن قلق, وقلقى يزداد يوماً بعد يوم. والسبب أن مثانتى تؤلمنى, وعندما أفرغها بالقسطرة كل خمسة أو ستة أيام, تكون كمية

البول الضئيلة, ذات اللون الحليبى, كثيفة القوام: صديداً صافياً. المثانة موبوءة, ويبدو أنها مهترئة وضامرة. وأخشى من تغير خلاياها بسبب الصديد المقيم. بصراحة: أخشى من السرطان. نعم, سرطان المثانة المرعب. ولذلك فعملية الزرع إن لم تكن حلاً لمشكلة الكلى الفاشلة, والغسيل الدائم, فعلى الأقل ستكون خلاصاً من قنبلة موقوتة, قد تتفجر فى جسدى فى أى وقت.

الزرع .. والمتبرع .. والتحاليل .. والتكاليف.

لكن هناك فى المقابل: باقى ثمن الفدان فى البنك, والبقية الباقية من القراريط, ميراثى من أبى, ألف رحمة ونور عليه.

4:24 68%

TABLE OF CONTENTS BOOKMARKS

كلبيَ الهرِمْ .. كلبيَ الحبيبْ

كلبيَ الهرِمْ .. كلبيَ الحبيبْ

أسامة الدناصورى

الولاعة الصفراء الجديدة

المسخ الصغير

كنا نعذّب المحافظ

من سيأخذ عزائى؟

خضراء ووحيدة

هاناكل إيه بكرة؟

أمى تحبنى

لم أذهب للميكانيكى

عرق

ملابس شتوية

وحدة الزمالك

داليا

سعد الله

فشل كلوى

صلاح

مرثيَة

د.مصطفى الديوانى

العملية

عن الشعر والنثر

حائط مبكاى

أمى حكت لى

تبوَل لاإرادى

وقْف حال

أمى حكت لى

تبوَل لاإرادى

وقْف حال

بمب والحمد لله

قلقسة

فاطمة

طائر الفينيق

أنياب دراكيولا سقطت

جنة الفشل الكلوى

سناء

د. محمد صفوت

آخر فصل

صدر للكاتب:

صدر للكاتب:

١- حراشف الجهم (شعر) دار مصرية ١٩٩١

٢- مثل ذئب أعمى (شعر) ط. محدودة ١٩٩٦

٣- على هيئة واحد شبهى (عامية) ط. محدودة ٢٠٠١

٤- عين سارحة وعين مندهشة (شعر) دار ميريت ٢